آيات التزكية في القرآن الكريم

" دراسة موضوعية"

د/ عبد الرقيب عبده خالد عبد الله

دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، اليمن ،

اب

N٧١٢٨٤٩٥٠٥@gmail.com

استـــهـلال

قال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢ ﴾

[البقرة: ١٥١ - ١٥٢]

الإهـــــــــــداء

إلى من نَحْسِبُ أنه من مجددي الإيمان في القرن الخامس عشر الهجري، من وهب في سبيل تعليم حقائق الإيمان زهرة شبابة، و من أفنى سني عمره في سبيل نشر معاني الإيمان في وطنه وأمَّته، ومن أسس هيئة الإعجاز العلمي؛ لبيان براهين الإيمان وأدلته، ومن أنشأ جامعة للإيمان تعلمنا في رحابها معاني الإيمان وتزكيته، إلى من نَحْسِبُ أنه من بقية السلف الصالح في عصرنا،

إلى شيخنا العلامة الشيخ عبد المجيد بن الزنداني

أهدي هذا الجهد المتواضع.

تلميذكم/ عبد الرقيب عبده خالد الراشدي

المقدمة

أصل هذا الكتاب رسالة علمية نال بها صاحبها درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن، من جامعة الإيمان في الجمهورية اليمنية عام ١٤٢٦هـ الموافق ٢٠٠٦م؛ ولأهمية موضوع البحث _ من وجهة نظري_ أعدت صياغة الكتاب وعدَّلتْ في بعض مباحثه ومطالبه بحث يكون مناسب للنشر، ويسهل على القارئ التعاطي مع هذا الموضوع، وبالتالي يستطيع أخذ تصور إجمالي عن هذا الموضوع الحيوي والهام.

وتزكية النفس من الموضوعات الهامة التي شغلت بال كثير من أرباب السلوك وأصحاب التربية، في كل الأديان ولملل والنحل، وفي مختلف العصور والأزمان، وقد كُتِبَتْ في ذلك الكثير من الكتب، لبيان منهاج التزكية وطرائق التربية، ومعظم هذه الكتابات شرقت وغربت؛ لأنها اعتمدت على آراء وتصورات بشرية محضة، وانطلقوا في نظرتهم للإنسان من نظرة أرضية بعيدة عن منهاج الله ووحيه.

ومن كتب في تزكية الأنفس من علماء الإسلام لم تخلُ كتاباتهم من شطحات أحيانا، ووضع بعضهم طرقا معينة لتزكية النفس، وسلكوا بها مسالك من المشقة والعنت، ما أنزل الله بها من سلطان، وجنح بعضهم إلى تحريم كثيرا من الملذات التي أباحها الله تعالى لعبادة كل ذلك– من و جهة

نظرهم– من أجل الظفر بنفس زاكية نقية، وهذه المناهج بحاجة إلى مراجعات جريئة وتقييم ذاتي؛ لإصلاح الخلل وتعديل العوج الحاصل فيها، قال العلامة ابن القيم:" تزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكىَّ نفسه بالرياضة، والمجاهدة، والخلوة، التي لم يجئ بها الرسل؛ فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم"[١]

وموضوع تزكية النفس من القضايا التي عنى بها القرآن الكريم، وأخذت حيزت لابأس به في كتاب الله تعالى، ونحن بدورنا في هذ البحث سوف نتتبع هذه الآيات القرآنية الواردة في كتاب الله تعالى والتي تتحدث عن تزكية الأنفس، في محاولة منا لتجلية هذا الموضوع وإبرازه إلى حيز الوجود، وسوف نتناول هذ الموضوع كدراسة موضوعية؛ ليستفيد منها كل مؤمن ينشد لنفسية التزكية والتطهير من آثام النفس وشرورها.

إنني على قناعة من أن القرآن الكريم هو المورد العذب والسلسبيل الصافي لتزكية الأنفس ؛ لأنه منزل من عند الله تعالى خالق هذه النفس وهو وحده العالم بما يزكيها ويصلحها قال تعالى:﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم ٢/ ٣١٥.

ٱلۡخَبِيرُ﴾[الملك: ١٤]، ففي كتاب الله تعالى الغنية والكفاية عما سواه من المواد والمصادر.

وفي عصرنا هذا تتأكد الحاجة الماسة لتزكية الأنفس؛ لأننا في عصر طغت فيه المادة وكثرة فيه الملذات والشهوات، الداعية للنفس الإنسانية للارتكاس في حمأة هذا السعار المادي الغير منضبط بدين ولامرتبط بقيم، ولا نجاة حقيقية من هذا الإعصار الهادر من شهوات المادية المعاصرة الا بالعمل الجاد على تزكية الأنفس وتنقيتها من كل الشهوات والشبهات التي تتعارض مع تزكيتها وطهارتها؛ وذلك باعتصامها بكتاب ربها وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، والعمل بهما وهو سبب لتزكية الأنفس في الدنيا، وسبيل الفوز بالآخرة.

د/ عبد الرقيب عبده خالد عبد الله

دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن

اليمن ـ إب.

N٧١٢٨٤٩٥٠٥@gmail.com

للتواصل، تلفون/ واتس ٧١٢٨٤٩٥٠٥

٦جماد الآخر ١٤٤٣هـ الموافق ٩/١/ ٢٠٢٢ م

أهمية تزكية الانفس

تظهر أهمية موضوع تزكية الانفس من خلال الأمور التالية:

أولا: إن القرآن الكريم أبدأ وأعاد في الحديث عن تزكية النفس الإنسانية، وقد وجاء أطول قسم في كتاب الله تعالى يبين أنه لا فلاح للإنسان في الدنيا ولا نجاة له في الآخرة إلاَّ إذا زكىَّ نفسه وطهرها من أدران الذنوب والمعاصي، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ١ – ١٠]، وأخبر سبحانه وتعالى أن زكاة النفس طريق للفوز والفلاح، فقال تعالى﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى: ١٤ -١٥].

ثانيا: إن تزكية الأنفس من ضمن مهمات الأنبياء والرسل، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢﴾[الجمعة: ٢]، وقال تعالى:﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾[آل

عمران: ١٦٤] ، قال العلاَّمة ابن القيم "إن تزكية النفوس مسلم إلى الرسل، وإنما بَعَثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة وتعليما وبيانا وإرشادا، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم وتزكيتها"(٢).

ثالثا: كان سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم أزكى الناس نفسا، وأطهرهم قلبا ،ومع ذلك فقد كان يسأل ربه أن يزكي نفسه التزكية الحقة الكاملة، فعن زيد بن أرقم قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كان يقول:" ... **اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها** "(٣).

رابعا: حاجة العلماء الربانيين، والدعاة العاملين، والمربين المخلصين، إلى فهم حقيقة تزكية الأنفس كما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فيزكوا بذلك أنفسهم، ثم يعملوا بعد ذلك على تزكية أبناء الأمة من حولهم.

خامسا: تزكية النفس من ضمن الأسباب التي توصل الإنسان لدخول الجنة، قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾[طه: ٧٦] ، قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية:" هذه

---

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم ٢/ ٣١٥.

(٣) صحيح مسلم، برقم(٤٨٩٩).

الدرجات العلى التي هي جنات عدن ثواب من تزكى، يعني: من تطهر من الذنوب، فأطاع الله فيما أمره، ولم يُدنِّس نفسه بمعصيته فيما نهاه عنه"[٤] .

سادسا: كثرة الفتن تجعل حاجتنا إلى التزكية أنفسنا أكثر من أي وقت مضى، ولا سيما في هذه الفترة التي قد استحكمت فتن الشبهات والشهوات، والتي لن ينجو منها أحد إلا من عصمه الله بحفظه، وعمل على تزكية نفسه.

سابعا: حاجة المسلمين اليوم الماسة إلى تزكية أنفسهم، وتأسيسها على تقوى من الله ورضوان، أشد من حاجتهم للطعام والشراب؛ لأن عليها مدار فوزهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة.

([٤]) تفسير الطبري، ١٨/ ٣٤٣.

المبحث الأول

حديث القرآن عن تزكية الأنفس

وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: التزكية في السياق القرآني

المطلب الثاني: التزكية في اللغة والاصطلاح

المطلب الثالث: الله يزكي من يشاء

المطلب الرابع: الذين لا يزكيهم الله تعالى يوم القيامة

المطلب الخامس: التزكية وظيفة الأنبياء وأتباعهم

المطلب السادس: التقديم والتأخير بين التزكية والتعليم

المطلب السابع: المطلب السادس: أنواع التزكية

المطلب الثامن: حكم تزكية الإنسان لنفسه بثنائه عليها

المطلب الأول

التزكية في السياق القرآني

قال الفيروز أبادي:" لفظ "زكى" ورد فى القرآن على ستة عشر وجها، وبعدة معان منها:

بمنعى الاحتراز عن الفواحش، كقوله تعالى:﴿ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾[النور: ٢١]. وبمعنى الصلاح والصيانة، كقوله تعالى:﴿ خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾[الكهف: ٨١].

وبمعنى النبوة والرسالة، كقوله تعالى: ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾[مريم: ١٩].

بمعنى الأقرب إلى المصلحة، كقوله تعالى: ﴿ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾[النور: ٢٨].

وبمعنى الحلال، كقوله تعالى: ﴿ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾[الكهف: ١٩].

وبمعنى الدعوة والعبادة، كقوله تعالى:﴿ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣١]. وبمعنى الحسن واللطافة، كقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾[الكهف: ٧٤].

وبمعنى الإقبال على الخدمة، كقوله تعالى:﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦٓ ﴾[فاطر: ١٨].

وبمعنى الإيمان والمعرفة، كقوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾[فصلت: ٧].

وبمعنى التوحيد والشهادة ، كقوله تعالى:﴿ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ ﴾ [عبس: ٧].

وبمعنى الثناء والمدح، كقوله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾[النجم: ٣٢].

وبمعنى النقاء والطهارة ، كقوله تعالى:﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾[الشمس: ٩].

وبمعنى التوبة من دعوى الربوبية: ﴿ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾[النازعات: ١٨].

وبمعنى أداء الزكاة الشرعية ، كقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[البقرة: ٤٣]"[٥] .

وقال الإمام الراغب الأصفهاني فعل " زكى " ينسب تارة إلى العبد؛ لكونه مكتسبا لذلك، نحو: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩]، وتارة ينسب إلى الله تعالى؛ لكونه فاعلا لذلك في الحقيقة نحو: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٤٩]؛ وتارة إلى النبي؛ لكونه واسطة في وصول ذلك إليهم، نحو: ﴿ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٥١]، وتارة إلى العبادة، التي هي آلة في ذلك، نحو: ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴾[مريم: ١٩] أي:

---

(٥) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروز أبادي٣/ ١٣٢، باختصار وتصرف.

مزكى بالخِلْقَة، وذلك على طريق من الاجتباء، كما يكون لجل الأنبياء والرسل " [٦].

وقد ورد لفظ التزكية في القرآن الكريم اثنين وعشرين مرة، [٧] بصيغ متعددة، والصيغ التي وردت فيها هى:

١ ـ صيغة الفعل الماضي: وقد ورد بهذه الصيغة خمس مرات، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾[الشمس: ٩].

٢ـ صيغ فعل الأمر: وقد ورد بهذه الصيغة خمسة عشر مرة ، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣ ﴾ التوبة: ١٠٣]

٣ ـ صيغة المبالغة: وقد ورد بهذه الصيغة مرتين، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى على لسان جبريل عليه السلام وهو يخاطب مريم: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ ﴾ [مريم: ١٩].

ونحن بدورنا استفدنا من هذه الاستعمالات الواردة في كتاب الله تعالى لكلمة" زكى"، ومن التقسيمات التي أشار إليها أهل العلم وبنينا عليها خطة هذا الكتاب.

([٦]) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني صـ ٣٨١.

([٧]) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي، صـ ٢٢٥.

المطلب الثاني

معنى التزكية في اللغة والاصطلاح

أولا: التزكية في اللغة

قال ابن منظور: "أصل الزكاة في اللغة الطهارة والنماء والصلاح، وزكى الرجل نفسه إذا وصفها وأثنى عليها" (٨).

وقال الراغب الأصفهاني" أصل الزكاة النمو الحاصل عن بركة الله تعالى، ويعتبر ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية، وبزكاء النفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة، وهو أن يتحرى الإنسان ما فيه تطهيره، " (٩).

وقال صاحب المصباح المنير:" زكا الرجل يزكو إذا صلح، وزكَّيته ـ بالتثقيل ـ نسبته إلى الزكاء وهو الصلاح" (١٠).

وقد يراد بالتزكية المدح ، يقال: زكى الرجل نفسه أي: مدحها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [النجم: ٣٢]، وقيل في المعنى المراد: " لا تمدحوها بحسن أعمالها" (١١)

---

(٨) لسان العرب، لابن منظور، ٣٥٨/١٦بتصرف يسير.

(٩) المفردات، للراغب الأصفهاني صـ ٣٨١، باختصار.

(١٠) المصباح المنير، للفيومي ١/ ٢٥٤.

(١١) زاد المسير، لابن الجوزي٨/ ٧٦.

ثانيا: التزكية في الاصطلاح

عرَّف رسول الله صلى الله عليه وسلم التزكية لأمته وبيَّن لهم حقيقتها، فعن عبد الله ابن معاوية الغاضري رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" " **ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان: من عبد الله وحده وأنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه رافدة عليه كل عام، وزكى نفسه، فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان**"(١٢).

وقال ابن تيمية رحمه الله:" التزكية هي: تربية القلب وتنميته بالكمال والصلاح؛ وذلك بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره، وتزكية النفس بالصالحات وترك السيئات أو إزالة الشر وزيادة الخير"(١٣).

وعرَّفها الشيخ سعيد حوى بقوله:" هى الأعمال التي تؤثر تأثيرا مباشرا على النفس؛ بأن تشفيها من مرض، أو تخرجها من أسر، أو تحققها بخلق" (١٤).

وعرَّفها الدكتور أنس أحمد كرزون، بقوله:" هي تطهير النفس من نزعات الشر والإثم، وتنمية فطرة الخير فيها مما يؤدي إلى استقامتها وبلوغها درجة الإحسان"(١٥) .

---

(١٢) صحيح الجامع الصغير، للألباني، برقم(٣٠٤١).

(١٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية ٩٦/١٠.

(١٤) المستخلص في تزكية الانفس، لسعيد حوى صـ ٢٧.

وقال أحمد فريد:" التزكية هى تنمية القلوب وإصلاحها وتطهيرها، وعكس التزكية التدسية، وهي التصغير والتحقير حتى تصير النفس حقيرة دنيئة لا تكاد ترى من حقارتها ودناءتها" (١٦).

وقال سيد قطب:" التزكية هي تطهير للضمير والشعور، وتطهير للعمل والسلوك، تطهير ترتفع به النفوس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح، ومن الأساطير الغامضة إلى اليقين الواضح، وترتفع به من رجس الفوضى الأخلاقية إلى نظافة الخلق الإيماني، ومن دنس الربا والسحت إلى طهارة الكسب الحلال، إنها تزكية شاملة للفرد والجماعة تزكية ترتفع بالإنسان وتصوراته عن الحياة كلها وعن نفسه ونشأته إلى آفاق النور التي يتصل فيها بربه، ويتعامل مع الملأ الأعلى ويحسب في شعوره وعمله حساب ذلك الملأ العلوي الكريم " (١٧).

ومن التعاريف السابقة للتزكية يمكننا تعريف التزكية بأنها:" عملية تطهير شاملة للنفس الانسانية من الأفعال والأقوال والأحوال الغير مرغوب فيها عند الله تعالى، وتنمية الأفعال والأقوال والأحوال التي فيها صلاح النفس وسعادها في الدنيا والآخرة ، وذلك بفعل المأمورات وترك المنهيات.

---

(١٥) منهج الإسلام في تزكية النفس وأثرها في الدعوة إلى الله، لأنس أحمد كرزون، ص ١٨.

(١٦) التزكية، بين أهل السنة والصوفية، لأحمد فريد ، ص٢ .

(١٧) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٦/ ٣٥٦٥

ثالثا: العلاقة بين التزكية والتربية

ومن الألفاظ القريبة من معنى التزكية لفظ التربية، وهما يشتركان في الغاية والهدف، قال ابن فارس:" الراء والباء والحرف المعتل" رَبى" تدل على أصل واحد، وهو الزيادة والنماء والعلو، تقول: رَبَا الشيء يربو، إذا زاد، وربا الرابية يربوها، إذا علاها، ويقال: ربيته، إذا غذوته " [١٨].

وقال محمد الغزَّال، وهو يوضح العلاقة بين التزكية والتربية:" التربية أقرب الكلمات إلى معنى التزكية، بل تكاد التزكية والتربية يتردفان في إصلاح النفس وتهذيب الطبع ورفع الإنسان إلى أعلى، كلما حاولت المثبطات والهواجس أن تسف به وتعوج" [١٩].

وعلى هذا يكون معنى التزكية يدل على معنى التربية في عصرنا الحاضر، والذي تعتني به الأمم والشعوب من خلال المناهج التي قررتها في مدارسها وجامعاتها، ومحاضن التربية الخاصة في ذلك.

([١٨]) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس٢/ ٤٠١، وينظر: المصباح المنير، للفيومي١/٢١٧.

([١٩]) نظرية التربية الإسلامية للفرد والمجتمع، لمحمد الغزَّال صـ ١٠.

المطلب الثالث: الله يزكي من يشاء

مما لاشك فيه أن الله سبحانه وتعالى هو المطهر للنفوس والمزكي لها، بهدايته وتوفيقه؛ لهذا نسب التزكية إليه في قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ٤٩ – ٥٠.]، فقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ ﴾ قال الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية:" هذا اللفظ عام في ظاهره ولم يختلف أحد من المتأولين في أن المراد اليهود، واختلفوا في المعنى الذي زكوا به أنفسهم، فقال قتادة والحسن: ذلك قولهم: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ ﴾[المائدة: ١٨] وقولهم﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ ﴾ [البقرة: ١١١]، وقال الضحاك والسدي تزكيتهم لأنفسهم قولهم: لا ذنوب لنا وما فعلناه نهارا غفر لنا ليلا، وما فعلناه ليلا غفر لنا نهارا، ونحن كالأطفال في عدم الذنوب، وقال ابن عباس: ذلك قولهم آباؤنا الذين ماتوا يشفعون لنا ويزكوننا، وقال عبد الله ابن مسعود: ذلك ثناء بعضهم على بعض، وهذا أحسن ما قيل، فإنه الظاهر من معنى الآية، والتزكية: التطهير والتبرئة من الذنوب" (٢٠).

---

(٢٠) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي٥/ ٢٤٦.

وقال سيد قطب في ظلاله حول هذه الآية: " ودعوى اليهود أنهم شعب الله المختار هي دعواهم من قديم، وقد اختارهم الله فعلا لحمل الأمانة وأداء الرسالة، وفضلهم على العالمين في ذلك الأوان؛ وأهلك لهم فرعون وملأه، وأورثهم الأرض المقدسة، ولكنهم هم انحرفوا بعد ذلك عن منهج الله؛ وعتوا في الأرض عتوا كبيرا، واجترحوا السيئات التي تضج منها الأرض، وعلى الرغم من ذلك كله فقد ظلوا يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة، وأنه لا يهتدي ولا يقبل عند الله إلا من كان هودا! كأن المسألة مسألة قرابة ونسب ومحاباة بينهم وبين الله، تعالى عن ذلك علوا كبيرا، فالله لا تصل بينه وبين أحد من خلقه قرابة ولا نسب، إنما تربط عباده به العقيدة المستقيمة والعمل الصالح، والاستقامة على منهج الله، فمن أخل بهذا فقد غضب الله عليه، ويشتد غضبه إذا كان قد آتى الضالين الهدى فانحرفوا عنه.

وما شأن هؤلاء اليهود إلا شأن من يزعمون الإسلام اليوم، ويحسبون أنهم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأن الله لا بد ناصرهم، ومخرج لهم اليهود من أرضهم، بينما هم ينسلخون انسلاخا كاملا من دين الله الذي هو منهجه للحياة، فينبذونه من حياتهم، ولا يتحاكمون إلى كتاب الله، لا في أقضيتهم ولا في اقتصادهم، ولا في اجتماعهم، ولا في آدابهم، ولا في تقاليدهم، وكل ما لهم من الإسلام أسماء المسلمين! وأنهم وُلِدوا في أرض

كان المسلمون يسكنونها ذات يوم! ويقيمون فيها دين الله، ويحكمون منهجه في الحياة!

والله يعجب رسوله صلى الله عليه وسلم من أمر أولئك اليهود الذين يزكون أنفسهم. وأمر المسلمين المعاصرين أعجب، وأشد إثارة للتعجيب والتعجب!!

إنه ليس الناس هم الذين يزكون أنفسهم؛ ويشهدون لها بالصلاح والقرب من الله واختيار الله، إنما الله هو الذي يزكي من يشاء، فهو أعلم بالقلوب والأعمال، ولن يظلم الناس شيئا، وإذا هم تركوا هذا التقدير لله سبحانه واتجهوا إلى العمل، لا إلى الادعاء، فلئن عملوا فلن يُغْبَنوا عند الله؛ ولن ينسى لهم عمل؛ ولن يبخس لهم حق.

والله سبحانه يشهد على اليهود أنهم إذ يزكون أنفسهم ويدعون أن الله راض عنهم يفترون عليه الكذب، ويشنع بفعلتهم هذه، ويوجه الأنظار إلى بشاعتها: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾.

إن دين الله منهج حياة، وطاعة الله هي تحكيم هذا المنهج في الحياة، والقرب من الله لا يكون إلا بطاعته، فلننظر أين نحن من الله ودينه ومنهجه، ثم لننظر أين نحن من حال هؤلاء اليهود الذين يعجب الله من حالهم، ويدمغهم بإثم الافتراء عليه في تزكيتهم لأنفسهم؟ فالقاعدة هي القاعدة، الحال هي الحال، وليس لأحد عند الله نسب ولا صهر ولا محاباة!! " [٢١]

([٢١]) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٢/١٥٠، باختصار.

ومن الآيات التي نُسِبت فيها التزكية إلى الله قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢١] قال الإمام الطبري في تفسير هذه الآية:" ولولا فضل الله عليكم أيها الناس ورحمته بكم، ما تطهر منكم من أحد أبدا من دنس ذنوبه وشركه، ولكن الله يطهر من يشاء من خلقه،﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾لما تقولون بأفواهكم، وتلقونه بألسنتكم، وغير ذلك من كلامكم، و﴿ عَلِيمٌ ﴾ بذلك كله وبغيره من أموركم، محيط به، محصيه عليكم، ليجازيكم بكل ذلك" (٢٢) .

وقال الشيخ الشنقيطي عند هذه الآية: " بيَّن الله جل وعلا في هذه الآية، أنه لولا فضله ورحمته، ما زكى أحد من خلقه، ولكنه بفضله ورحمته يزكي من يشاء تزكيته من خلقه، ويفهم من الآية أنه لا يمكن أحدا أن يزكي نفسه بحال من الأحوال، والزكاة في هذه الآية: هي الطهارة من أنجاس الشرك، والمعاصي، وقوله:﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾، أي يطهره من أدناس الكفر والمعاصي بتوفيقه وهدايته إلى الإيمان والتوبة النصوح والأعمال الصالحة" (٢٣).

فالله وحده هو المزكي لعبادة، متى ما عملوا بتلك الأسباب التي توصلهم لنيل تزكية الله وتطهيره لهم.

---

(٢٢) جامع البيان، للطبري١٩/ ١٣٥.

(٢٣) أضواء البيان ، للشنقيطي٥/ ٤٨٥.

المطلب الرابع: الذين لا يزكيهم الله تعالى يوم القيامة

ذكر الله تعالى في كتابه الكريم عددا من الذين لا يزكيهم ولا يكلمهم يوم القيامة ولهم عذاب أليم، ومن هؤلاء:

أولا: الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقر: ١٧٤]، قال الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية:" يعني علماء اليهود، كتموا ما أنزل الله في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم وصحة رسالته، ﴿وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ ﴾ يعني أخذ الرشاء وسماه قليلا لانقطاع مدته وسوء عاقبته، فسمي ما اعتاضوه عن ذلك ثمنا؛ لأنهم جعلوه عوضا فانطبق عليه اسم الثمن وإن لم يكن ثمنا.

وهذه الآية وإن كانت خاصة ببني إسرائيل فهي تتناول من فعل فعلهم، فمن أخذ رشوة على تغير حق أو إبطاله، أو امتنع من تعليم ما وجب عليه أو أداء ما علمه، وذكر البطون في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ دلالة وتأكيدا على حقيقة الأكل، وفي ذكر البطون أيضا تنبيه على

جشعهم وأنهم باعوا آخرتهم بحظهم من المطعم الذي لا دوام له، وسمي ما أكلوه من الرشاء نارا لأنه يؤديهم إلى النار، ومن عقوباتهم ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ عبارة عن الغضب عليهم وإزالة الرضا عنهم، وقيل: المعنى ولا يرسل إليهم الملائكة بالتحية ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ ﴾ أي لا يصلح أعمالهم الخبيثة فيطهرهم، وقال الزجاج: لا يثني عليهم خيرا ولا يسميهم أزكياء ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بمعنى مؤلم"[٢٤].

قال سيد قطب عند هذه الآية:" والتنديد بكتمان ما أنزل الله من الكتاب كان المقصود به أولاً أهل الكتاب، ولكن مدلول النص العام ينطبق على أهل كل ملة يكتمون الحق الذي يعلمونه، ويشترون به ثمنا قليلا، وهو ثمنا قليلا حين يقاس إلى ما يخسرونه من رضى الله، ومن ثواب الآخرة، وكأنما هذا الذي يأكلونه من ثمن الكتمان والبهتان نار في بطونهم! وإنها لحقيقة حين يصيرون إلى النار في الآخرة، فإذا هي لهم لباس، وإذا هي لهم طعام!، وجزاء ما كتموا من آيات الله، أن يهملهم الله يوم القيامة، ويدعهم في مهانة وازدراء والتعبير القرآني عن هذا الإهمال وهذه المهانة وهذا الازدراء هو قوله :﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ ﴾، لتجسيم الإهمال في صورة

([٢٤]) تفسير القرطبي ٢/ ٢٣٤باختصار.

قريبة لحس البشر وإدراكهم، لا كلام ولا اهتمام ولا تطهير ولا غفران . . ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾"[٢٥].

فالذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلاً لا يستحقون تزكية الله وتطهيره لهم في الآخرة، جزاءً لما اقترفوه في حياتهم الدنيا.

ثانيا: الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [آل عمران: ٧٧]، وهذه الآية لها سبب نزول، فعن أبي وائل عن عبد الله رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان فأنزل الله تصديق ذلك:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، فدخل الأشعث بن قيس فقال ما حدثكم أبو عبد الرحمن؟ فقالوا: كذا وكذا قال: فيَّ أنزلت، كانت لي بئر في أرض ابن عم لي فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال بينتك أو يمينه قلت: إذا يحلف عليها يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"

([٢٥]) في ظلال القرآن، لسيد قطب ١/ ١٢٩ باختصار.

من حلف على يمين صبر وهو فيها فاجر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله يوم القيامة وهو عليه غضبان"[٢٦].

قال الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية:"يدخل في هذه الآية كل من أخذ شيئا من الدنيا في مقابل ما تركه من حق الله أو حق عباده، وكذلك من حلف على يمين يقتطع بها مال معصوم فهو داخل في هذه الآية، فهؤلاء ﴿لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب لهم من الخير ﴿يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة غضبا عليهم وسخطا، لتقديمهم هوى أنفسهم على رضا ربهم ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يطهرهم من ذنوبهم، ولا يزيل عيوبهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾أي: موجع للقلوب والأبدان، وهو عذاب السخط والحجاب، وعذاب جهنم، نسأل الله العافية" [٢٧].

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم جملة من الذين لا يكلمهم الله تعالى يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم وتوعدهم بالعذاب الأليم، فعن أبي ذر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**" قلت: يا رسول الله، من هم؟ خابوا وخسروا؟ قال: "**المسبل، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب، والمنان**" وفي

([٢٦]) أسباب النزول، للواحدي صـ ١١٣، وينظر صحيح البخاري، برقم(٦١٨٣).

([٢٧]) تفسير السعدي صـ ١٣٥.

رواية :" **شيخ زان وملك كذاب ، وعائل مستكبر** " [٢٨]، قال الإمام النووي في شرحه لهذين الحديثين: معنى "**لا يزكيهم**"، أي: لا يطهرهم من دنس ذنوبهم، وقال الزجاج وغيره: معناه لا يثني عليهم، ومعنى "**لهم عذاب أليم**" مؤلم، قال الواحدي: هو العذاب الذي يخلص إلى قلوبهم وجعه، وسُمِّيَ العذاب عذابا؛ لأنه يمنع المعاقب من معاودة مثل جرمه، ويمنع غيره من مثل فعله"[٢٩].

([٢٨]) صحيح مسلم، برقم(١٥٤).

([٢٩]) شرح صحيح مسلم، للنووي١/ ٢١٩.

المطلب الخامس: التزكية من وظائف الأنبياء

أرسل الله تعالى محمد صلى الله عليه وسلم يدعو الخلق إلى الله تعالى، وقد كلفه الله تعالى بالقيام بمهمات متعددة تجاه الخَلْقِ الذين بعثه الله فيهم، ومن أبز مهماته صلى الله عليه وسلم تلاوة الآيات، وتعليم الخلق الكتاب والحكمة، وتزكيتهم، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في عدد من الآيات في كتابه الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١] هذه الآية الكريمة تبين مهمات الرسول صلى الله عليه وسلم والتي من أجلها أرسله الله تعالى، ومن ضمن هذه المهمات العمل على تزكية أنفسهم، ونحن سنستعرض هذ المهمات بما يتناسب من مقتضى هذ البحث على النحو الآتي:

المهمة الأولى: تلاوة الآيات

وقد جاء ذكر هذه المهمة في قوله تعالى: ﴿ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا ﴾قال الإمام الرازي في تفسير هذه الآية: " اعلم أن القرآن الكريم من أعظم النعم؛ لأنه معجزة باقية؛ ولأنه يتلى فيتأدى به العبادات؛ ولأنه يتلى فيستفاد منه جميع؛

ولأنه يتلى فيستفاد منه مجامع الأخلاق الحميدة، فكأنه يحصل من تلاوته كل خيرات الدنيا والآخرة" [٣٠].

المهمة الثانية: تزكية الناس

وقد جاء ذكر هذه المهمة في قوله تعالى:﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾، قال أهل التفسير عند هذه الآية: "أي: يطهركم من دنس الذنوب، فالتزكية تطهير النفس، مشتقة من الزكاة وهي النماء؛ وذلك لأن في أصل خلقة النفوس كمالات وطهارات تعترضها أرجاس ناشئة عن ضلال أو تضليل، فتهذيب النفوس وتقويمها يزيدها من ذلك الخير المودع فيها، قال تعالى:﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [التين: ٤ – ٥]، وقال صلى الله عليه وسلم: "**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**" [٣١]، أي: يطهر نفوسكم من الأخلاق السافلة، والرذائل الممقوتة، ويخلقها بالأخلاق الحميدة بما لكم فيه من حسن الأسوة لا بالقهر والسطوة، والإسلام كما جاء بالتوحيد الماحي للشرك، جاء بالتهذيب المطهر من سفساف الأخلاق وقبائح العادات

---

(٣٠) تفسير الرازي٢/ ٤٣٩.

(٣١) مسند أحمد برقم(٨٩٣٩)، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: صحيح، وهذا إسناد قوي رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عجلان فقد روى له مسلم متابعة وهو قوي الحديث، وصححه الألباني في السلسة الصحيحة برقم(٤٥).

والمعاصي التي كانت فاشية في العرب، وقد زكاهم النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك كله باقتدائهم بأخلاقه العظيمة في عباداته الكاملة وآدابه العالية، وجمعهم بعد تلك الفرقة، وألف الله بينهم على يديه حتى صاروا كرجل واحد، وَجَعَلَتْ شريعته ذمتهم واحدة يسعى بها أدناهم، فأي تزكية أعلى من هذه التزكية؟ إنهم بزكاة أنفسهم هذه فتحوا العالم وكانوا أئمة أمم المدنية التي كانت تحتقر جنسهم كله، فإن الأعاجم إنما عرفوا فضل الإسلام بعدلهم وفضلهم في فتوحهم، وما فهموا القرآن إلا بعد إسلامهم وتعلمهم العربية، والرسول الذي زكى هذه الأمة التي زكت أمما كثيرة حقيق بأن تكون نفسه أزكى الأنفس وأكملها" (٣٢).

المهمة الثالثة:تعليم الناس الكتاب والسنة

وقد جاء ذكر هذه المهمة في قوله تعالى:﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾؛وذلك أنه إذا زكت النفوس أصبحت متهيئة لتلقي تعليم الكتاب والحكمة؛ لهذ قال في المهمة الثالثة من مهمات الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ "أى: ما فى القرآن من المعاني والاسرار والشرائع والاحكام التي باعتبارها وصف القرآن بكونه هدى ونورا فإنه صلى

(٣٢) تفسير الطبري٣/ ٢١٠، وتفسير المنار، لمحمد رشيد رضا ٢٣/٢باختصار يسير، والتحرير والتنوير، لابن عاشور ٤٩/٢.

الله عليه سلَّم كان يتلوه عليهم ليحفظوا نظمه ولفظه فيبقى على ألسنة أهل التواتر مصونا من التحريف والتصحيف ويكون معجزة باقية الى يوم القيامة وتكون تلاوته فى الصلاة وخارجها نوعا من العبادة والقربة ومع ذلك كان يعلم ما فيه من الحقائق والاسرار ليهتدوا بهداه وانواره، وعطف على تعليم الكتاب تعليم الحكمة وهى السنة النبوية كما أشار إلى ذلك جمهور المفسرين [٣٣]؛ ذاك أن سنة الرسول العملية وسيرته صلى الله عليه وسلم في بيته، ومع أصحابه في السلم والحرب، والسفر والإقامة، فى القلة والكثرة، جاءت مفصلة لمجمل القرآن، مبينة لمبهمه، كاشفة لما في أحكامه من الأسرار والمنافع" [٣٤].

المهمة الرابعة: تعليم الناس ما لا علم لهم به

وقد جاء ذكر هذه المهمة في قوله تعالى:﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾، قال سيد قطب رحمه الله تعالى في ظلاله عند هذه الآية: " كان ذلك حقا في واقع الجماعة المسلمة، فقد التقطها الإسلام من البيئة العربية التي لا تعلم إلا أشياء قليلة متناثرة، فجعل منها أمة تقود البشرية قيادة حكيمة راشدة، خبيرة

([٣٣]) تفسير الطبري ٣/ ٨٧، وتفسير ابن كثير ١/ ٤٦٤، وزاد المسير، لابن الجوزي ١/ ١٤٢.

([٣٤]) روح البيان، لإسماعيل حقي ١/٣٤١، وتفسير المراغي ٢ /١٩.

بصيرة عالمة، وكان هذا القرآن مع توجيهات الرسول المستمدة كذلك من القرآن هو مادة التوجيه والتعليم،

وما يزال هذا المنهج الذي خرج ذلك الجيل وتلك القيادة على استعداد لتخريج أجيال وقيادات على مدار الزمان لو رجعت الأمة المسلمة إلى هذا المعين ولو آمنت حقا بهذا القرآن ولو جعلته منهجا للحياة لا كلمات تغنى باللسان لتطريب الآذان! [٣٥].

فالعمل على تزكية الخلق هي احدى المهمات التي من أجلها بعث الله الأنبياء والمرسلين، وقد قاموا بهذه المهمة خير قيام، وبعد الأنبياء تنتقل مهمة التزكية إلى ورثتهم من العلماء والدعاة والمربين، وتشتد الحاجة لتزكية الأنفس في عصرنا هذ الذي طغت فيه المادة وكثرة فيه الشبهات وانشرت الشهوات، فقست معظم القلوب، وفسدت معظم النفوس، وهذ يلقي عبئا كبيرا على العلماء والدعاة والمربين العاملين في مجال تزكية أنفسهم وتزكية الخلق من بعدهم.

ومما ينبغي التنبيه إليه أن عملية التزكية عملية مستمرة يحتاج إلى تعدها في كل وقت وحين من قبل أهل الاختصاص في ذلك، حيث أن الأفعال الواردة في آيات التزكية جاءت مضارعة والأفعال المضارعة تفيد التجدد والاستمرار، وقد أشار إلى هذه اللطيفة الإمام أبوحيان في تفسيره حيث قال: "

([٣٥]) في ظلال القرآن، لسيد قطب ١/ ١١٠.

وأتى بهذه الصفات(يتلو، يزكي، يعلم) أفعالاً مضارعة؛ لِيدل بذلك على التجدد، لأن التلاوة والتزكية والتعليم تتجدد دائما [٣٦].

(٣٦) البحر المحيط، لأبي حيان ٢/ ٤٧، بتصرف يسير

المطلب السادس: التقديم والتأخير بين التزكية والتعليم في القرآن

وردت التزكية مقترنة بالتعليم في أربع آيات من القرآن الكريم، وفي ثلاث آيات منها تقدم لفظ التزكية على التعليم، وفي آية واحدة تقدم التعليم على التزكية، والآيات التي تقدمت فيها التزكية على التعليم هي قوله تعالى:﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١] وقوله تعالى:﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وفي قوله سبحانه وتعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢ ﴾ [الجمعة: ٢]، والآية التي تقدم فيها التعليم على التزكية هي آية دعاء إبراهيم حينما دعا ربه قائلا:﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩] وقد وجه أهل التفسير سبب التقديم والتأخير في ذلك بعدة توجيهات فقالوا:" قُدِّمت التزكية على التعليم؛ لأن المقام للامتنان على المسلمين، فَقُدِّم فيها ما يفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم، وهي منفعة تزكية نفوسهم،

اهتماما بها وبعثا للهمم بالحرص على تحصيل وسائلها وتعجيلا للبشارة بها، وقيل: قدمت التزكية تارة وأخرت أخرى؛ لأنها علة غائية لتعليم الكتاب والحكمة، وهي مقدمة في القصد والتصور، مؤخرة في الوجود والعمل، فقدمت وأخرت رعاية لكل منهما، فأما في دعوة إبراهيم فقد رتبت الجمل على حسب ترتيب حصول ما تضمنته في الخارج، فتلاوة الآيات أولا ثمَّ التعليم وثمرة ذلك حصول التزكية، وقيل: حيث يقدم التزكية يكون معظم المخاطبين عواما مقلدين ليسوا أهلا لتعلم الكتاب والحكمة، فتكون التزكية أهم، وحيث يقدم التعليم يكون المخاطبون خواص فيكون الأهم التعليم مع أن كلا الأمرين مطلوب [٣٧].

وللعلامة ابن تيمية توجيه لطيف في هذه مسألة التقديم والتأخير، حيث قال رحمه الله تعالى:" وتقديم العلم على التزكية من باب تقديم العلم على العمل؛ لأن التزكية ثمرة من ثمار سماع كلام الأنبياء وإرشاداتهم، وهذا يحصل بالعلم الإجمالي والذكر العام الذي ينتفع به أقوامهم فيهتدون إلى الحق وتقوم به الحجة على آخرين فيستحقون العذاب في الآخرة"[٣٨].

([٣٧]) البحر المحيط، لأبي حيان ٢/ ٤٨، وتفسير ابن عرفة، صـ ١٩٢، وتفسير الألوسي ٢/ ٦١، واللباب في علوم الكتاب، لابن عادل ٢/٢٠٣، والتحرير والتنوير، لابن عاشور ٢/ ٤٩.

([٣٨]) النبوات، لابن تيمية صـ ١٥٣ باختصار وتصرف.

المطلب السابع: أنواع التزكية

المتأمل في الآيات القرآنية الوارد في التزكية يجد أنها قد تحدث عن نوعين من أنواع التزكية:

أولا: التزكية الفطرية

وهى التي أوجدها الله في الإنسان وتكون مصاحبة له منذ ولادته، حيث يخلق الله الإنسان على الفطرة الزكية والنفس السوية، وبناء على ذلك فقد أعطى الله كل إنسان نفسا سوية قابلة للتزكية والتنمية، وهذ ما أشار إليها القرآن في قوله تعالى: "﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ [الكهف: ٧٤] فبعد أن بعد اصطحب سيدنا موسى عليه السلام الخضر في رحلته، وركبا سويا في السفينة، ما كان من الخضر إلاَّ أن خرقها، فأنكر عليه سيدنا موسى عليه السلام ذلك، ثم سارا سويا فوجدا غلاما يلعب مع الغلمان فما كان من الخضر إلاَّ أن توجه إليه وقتله مباشرة بدون أن يبدي لسيدنا موسى عليه السلام السبب الحقيقي الذي دفعه لقتله، فما كان من سيدنا موسى عليه السلام إلاَّ أن أنكر عليه فعلته هذه، وقال له متعجبا:﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾، وللمفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ ﴾ أقوال كثيرة منها:" أنها المطهرة التي لا ذنب لها،

أو أنها البريئة وقيل: إنها المسلمة، أو النامية، أو التي لم تعمل بالخبث، وغيرها من الأقوال [٣٩] ، والذي يظهر أن القول الراجح من هذه الأقوال، قول من قال: إنها النفس الطاهرة؛ وهو ما يتناسب مع حال هذ الغلام في هذ السن؛ فهو لايزال على الفطرة التي فطره الله عليها، وهذا الفطرة يفطر الله عليها كل مولود، وقد أخبرنا عن هذه الفطرة والطهارة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه و سلم: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصراه أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء " [٤٠].

وهذ القول رجحة الشيخ الشنقيطي، وغير، حيث قال: " ويكثر في القرآن إطلاق مادة الزكاة على الطهارة، فالزكاة في هذه الآية ونحوها: يراد الطهارة من أدناس الذنوب والمعاصي" [٤١].

ولما بيَّنَ الخضر لسيدنا موسى عليه السلام السبب الذي دفعه لقتل الغلام قال له: ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف: ٨١] وذهب أكثر أهل التفسير إلى أن المراد بلفظ الزكاة هو طهارة النفس ووصف

([٣٩]) ينظر في ذلك، تفسير الطبري ١٨/ ٦٤، وتفسير القرطبي١١/٢٠ وتفسير ابن كثير٥/ ١٧٨، وزاد المسبر، لابن الجوزي٤/٢٤١.

([٤٠]) رواه البخاري، برقم(١٣١٩).

([٤١]) أضواء البيان، للشنقيطي٣/٣٠٠، وينظر: اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل ١١/ ٥.

النفس بالزاكية؛ لأنها نفس غلام لم يبلغ الحلم فلم يقترف ذنبا فكان زكيا طاهرا، والزكاء: الزيادة في الخير" [٤٢]

والموطن الثاني الذي ورد فيه لفظ التزكية بمعني الطهارة والتي تدل عل التزكية الفطرية قوله تعالى ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ ﴾[مريم: ١٦ –١٩] قال الإمام الطبري: " الغلام الزكي: هو الطاهر من الذنوب تقول العرب: غلام زاك وزكي" [٤٣] ، وقال السعدي: " وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكائه؛ فإن الزكاء يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة واتصافه بالخصال الحميدة " [٤٤] والمراد بالغلام الزكي في هذه الآية هو سيدنا عيسى عليه السلام.

ومن المواطن التي جاء فيها لفظ الزكاة بمعن الطهارة ما ذكره الله تعالى عن يحيى ابن زكريا بقوله تعالى ﴿ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴾ [مريم:

([٤٢]) تفسير ابن كثير٣/١١٦، وتفسير االشوكاني٣/٤٣٥، وتفسير الألوسي١٨/٥، تفسير ابن عاشور ١٥/ ٣٧٨.

([٤٣]) تفسير الطبري١٨/ ١٦٤، وينظر: تفسير الغوي٥/ ٢٢٣، وزاد المسير٥/٢١٧.

([٤٤]) تفسير السعدي صـ ٤٩١.

١٣] قال الإمام الطبري في تفسيره: " الزكاء وهو الطهارة من الذنوب، واستعمال بدنه في طاعة ربه" (٤٥).

ومما سبق يتبن لنا: أن التزكية الفطرية هى التي يوجدها الله مع كل إنسان منذ الولادة وتستمر معه مادام في مرحلة الطفولة ولم يجر عليه القلم، وهو ما عبر عنه القرآن بالغلام، في كل من قصة الغلام في سورة الكهف الذي قتله الخضر، وهوما صف الله به سيدنا عيسى عليه السلام حينما بشر جبريل مريم بغلام زكيا، ونفس الوصف ينطبق على سيدنا يحيى ابن زكريا حينما وصفة الله بالحنان والزكاة وكان لايزال في مرحلة الصبى.

ومما ينبغي أن ينتبه له أن التزكية الفطرية تستمر مع الأنبياء والمرسلين حتى بعد بلوغهم سن التكليف؛ وذلك بسبب نبوتهم التي تقتضي العصمة والوقوع في الزلل والخطأ، بخلاف سائر البشر الذين يتوجب عليهم العمل على اكتساب التزكية بعد سن التكليف، وهو ما سنتحدث عنه في النوع الثاني من أنواع التزكية وهي التزكية المكتسبة.

ثانيا: التزكية المكتسبة

التزكية المكتسبة: هى التي يكتسبها الإنسان بعد أن يجرى عليه القلم ويصل إلي مرحلة التكليف، ويصبح مخاطبا بفروع الشريعة، من فعل

---

(٤٥) تفسير الطبري ١٨/١٥٩.

المأمورات وترك المنهيات، ومجاهدته لنفسه وفي تركها لشهواتها المحرمة، ولكي يحصل الإنسان على هذ النوع من التزكية يحتاج إلى عزيمة قوية ومجاهدة مستمرة لنفسة ما دام على قيد الحياة، مع طلبه العون من الله تعالى، قال الشيخ الشنقيطي رحمة الله تعالى:" كل النصوص التي فيها عود الضمير، أو إسناد التزكية إلى العبد، فإنها بفضل من الله ورحمته، كما تفضل عليه بالهدى والتوفيق للإيمان، فهو الذي يتفضل عليه بالتوفيق إلى العمل الصالح، وترك المعاصي، كما في قولك: "لا حول ولا قوة إلا بالله"" (٤٦)

وقد أمر الله تعالى عباده بالعمل على تزكية أنفسهم، ورغَّبهم في ذلك، فقال تعالى: ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[فاطر: ١٨.] قال الإمام الطبري: " أي: ومن يتطهر من دنس الكفر والذنوب بالتوبة إلى الله، والإيمان به، والعمل بطاعته. فإنما يتطهر لنفسه، وذلك أنه يثيبها به رضا الله، والفوز بجنانه، والنجاة من عقابه الذي أعده لأهل الكفر به" (٤٧).

وقال السعدي:" أي: ومن زكى نفسه بالتنقي من العيوب، كالرياء والكبر، والكذب والغش، والمكر والخداع والنفاق، ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة، وتحلى بالأخلاق الجميلة، من الصدق، والإخلاص، والتواضع، ولين الجانب،

---

(٤٦) أضواء البيان، للشنقيطي٨/ ٥٤٢.

(٤٧) تفسير الطبري٢٠/ ٤٥٦.

والنصح للعباد، وسلامة الصدر من الحقد والحسد وغيرهما من مساوئ الأخلاق، فإن تزكيته يعود نفعها إليه، ويصل مقصودها إليه، ليس يضيع من عمله شيء. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فيجازي الخلائق على ما أسلفوه، ويحاسبهم على ما قدموه وعملوه، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها" [٤٨]،وقال ابن عاشور:" في هذه الآية تعريض بالذين تركوا تزكية أنفسهم فكان تركهم ضرا على أنفسهم" [٤٩] ،

فالله تعالى يدعو الناس إلى تزكية أنفسهم، ويستفاد من هذه الدعوة أن تزكية الإنسان لنفسة يمكن اكتسابها، متى ما سعى إلى ذلك واستعان بالله تعالى أولا وأخيرا، وبحث عن الأسباب الجالبة لها.

([٤٨]) تفسير السعدي، صـ٦٨٧.

([٤٩]) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٢٠/ ٢٩١، باختصار وتصرف يسير.

المطلب الثامن: تزكية الإنسان لنفسه

إن ثناء الإنسان على نفسه وتزكيتها ينقسم إلى قسمين:

أولا: التزكية المذمومة

الكثير من الناس يظنون أن ثناء الإنسان على نفسه من الأمور المذمومة مطلقا، والصواب أن ثناء الإنسان على نفسه وتزكيته لها على نوعين، نوع محمود، ونوع مذموم قال الراغب الأصفهاني:" وليس الثناء في نفسه بمحمود ولا مذموم، وإنما يحمد ويذم بحسب المقاصد، فمن قصده طلب ما يستحق به الثناء على الوجه الذي يستحب، فذلك محمود، والمذموم منه أنه يميل إليه من غير تجربة لفعل ما يقتضيه وذلك من أعظم الآفات لمن تحراه، فإنه يفتح باب الحسد، والحسد يفتح باب الكذب، والكذب رأس كل مذموم" [٥٠].

وقال لإمام النووي:" اعلم أن ذكر محاسن نفسه ضربان: مذموم؛ ومحبوب، فالمذموم أن يذكره للافتخار وإظهار الارتفاع والتميز على الأقران وشبه ذلك، والمحبوب أن يكون فيه مصلحة دينية، وذلك بأن يكون آمراً بمعروف، أو ناهياً عن منكر، أو ناصحاً أو مشيراً بمصلحة، أو معلما، أو مؤدبا، أو واعظا، أو مذكرا، أو مصلحا بين اثنين، أو يدفع عن نفسه شرا،

---

(٥٠) الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني صـ . ١٩٦، بتصرف واختصار.

أو نحو ذلك، فيذكر، محاسنه ناويا بذلك أن يكون هذا أقرب إلى قبول قوله واعتماد ما يذكره، " [٥١] .

وقد استدل من قال بذم مدح الإنسان لنفسه أو تزكيتها، بقوله تعالى:﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم: ٣٢]، قال لإمام الطبري في تفسير هذه الآية:" أي: فلا تشهدوا لأنفسكم بأنها زكية بريئة من الذنوب والمعاصي، ﴿ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ أي: ربك يا محمد أعلم بمن خاف عقوبة الله فاجتنب معاصيه من عباده" [٥٢] .

وقال الإمام ابن كثير:" أي: تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم" [٥٣]

قال الألوسي في تفسيره لهذه الآية وهو يبين حكم تزكية الإنسان لنفسه قال:" وهذا مذموم منهي عنه إذا كان بطريق الإعجاب، أو الرياء أما إذا لم يكن كذلك فلا بأس به ولا يعد فاعله من المزكين أنفسهم، والمراد النهي عن تزكية السمعة أو المدح للدنيا، أو تزكية على سبيل القطع، وأما التزكية لإثبات الحقوق ونحوه فهي جائزة" [٥٤] .

([٥١]) الاذكار، للنووي، صـ ٢٧٩.

([٥٢]) جامع البيان، للطبري ٢٢/ ٥٤٠، باختصار وتصرف يسير.

([٥٣]) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٦٢.

([٥٤]) روح المعاني، للألوسي ٢٠/ ١٣.

وذهب البعض إلى أن الآية نزلت في اليهود، فقد أخرج الواحدي وغيره عن ثابت بن الحرث الأنصاري قال:" كانت اليهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا: هو صِدِّيْقٌ فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله تعالى في بطن أمها إلا يعلم سعادتها أو شقاوتها" فأنزل الله سبحانه عند ذلك:﴿ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾" (٥٥) .

ومن التزكية المذمومة للنفس، التسمية بأسماء مشعرة بذلك، لهذ كان صلى الله عليه وسلم يغير الأسماء المشعرة بالتزكية، فعن زينب بنت أبي سلمة أنها سُمِّيْت برة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم سموها زينب " (٥٦)، قال الإمام النووي:" وقد ثبتت أحاديث بتغييره صلى الله عليه و سلم أسماء جماعة كثيرين من الصحابة، وقد بَيَّن صلى الله عليه وسلم العلة فى النوعين وما فى معناهما وهى التزكية أو خوف التطير" (٥٧).

وعلَّم الرسول صلى الله عليه وسلم أمته كيف تتصرف مع مَنْ احترفوا مهنة مدح الناس وتزكيتهم، فعن مجاهد عن أبي معمر قال قام رجل يثني على

---

(٥٥) أسباب النزول، للواحدي صـ ٢٩٧.

(٥٦) رواه مسلم، برقم(٣٩٩٢).

(٥٧) شرح صحيح مسلم، للنووي ١٢/ ١٢١.

أمير من الأمراء فجعل المقداد يحثي عليه التراب وقال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحثي في وجوه المداحين التراب" [٥٨]

قال الرغب الأصفهاني " وأما ثناء الإنسان على نفسه وتزكيته لها فشناعة وفظاعة، فقد قيل لحكيم: ما الذي لا يحسن أن يقال وإن كان حقا، فقال: مدح الرجل نفسه، وقد قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: من سيد قومك، فقال: أنا، فقال: لو كنته لما قلته" [٥٩].

ثانيا: التزكية المحمودة

وهو الثناء الذي تدعو إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة، وقد استدل أصحاب هذ القول، بقوله تعالى على لسان نبيه يوسف عليه السلام ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾[يوسف: ٥٥]، قال العلامة ابن كثير في تفسير هذه الآية:"يجوز للرجل مدح نفسه؛ وذلك إذا جُهِل أمره، للحاجة، فقد ذكر يوسف عن نفسه أنه ﴿ حَفِيظٌ ﴾ أي: خازن أمين، حفيظ لما استودعتني ﴿ عَلِيمٌ ﴾ ذو علم وبصر بما يتولاه، عليم بسني الجدب، وإنما سأل أن يُجْعَل على

([٥٨]) رواه مسلم، برقم(٥٣٢٢).

([٥٩]) الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني صـ ١٩٦بتصر واختصار.

العمل لعلمه بقدرته عليه، ولما في ذلك من المصالح للناس خزائن الأرض، ليتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد "[٦٠].

وقال الإمام الشوكاني:" طلب يوسف عليه السلام منه ذلك ليتوصل به إلى نشر العدل، ورفع الظلم، ويتوسل به إلى دعاء أهل مصر إلى الإيمان بالله، وترك عبادة الأوثان، وفيه دليل على أنه يجوز لمن وثق من نفسه إذا دخل في أمر من أمور السلطان أن يرفع منار الحق، ويهدم ما أمكنه من الباطل، وطلب ذلك لنفسه، ويجوز له أن يصف نفسه بالأوصاف التي لها، ترغيبا فيما يرومه، وتنشيطا لمن يخاطبه من الملوك بإلقاء مقاليد الأمور إليه، وجعلها منوطة به" [٦١].

وقد أجاب الإمام الرازي عن بعض التساؤلات التي قد تحصل بسبب طلب يوسف للولاية ومدحه نفسه وتزكّتها عند الملك فقال:" لقائل أن يقول: لم طلب يوسف الإمارة؟ وأيضا كيف جوز من نفسه مدح نفسه وتزكيتها بقوله:﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾مع أنه تعالى يقول:﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ ﴾ [النجم: ٣٢] ؟ فهذه الأسئلة لا بد من جوابها فنقول:إن التصرف في أمور الخلق كان واجبا عليه، فجاز له أن يتوصل إليه بأي طريق كان؛ لأنه كان رسولا حقا من الله تعالى إلى الخلق، والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان، فكان هذا

([٦٠]) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٩٥.

([٦١]) فتح القدير، للشوكاني٤/ ٤٤.

الطريق واجبا عليه ولما كان واجبا سقطت الأسئلة بالكلية، فقوله تعالى:﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ ﴾ المراد منه تزكية النفس حال ما يعلم كونها غير متزكية، والدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية:﴿ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ أما إذا كان الإنسان عالما بأنه صِدْقٌ وحق فهذا غير ممنوع منه والله أعلم " (٦٢).

ومن الأدلة التي استدل بها من قالوا بجواز مدح الإنسان نفسه إذا دعت لذلك الحاجة قوله تعالى:﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ [الضحى: ١١] ، قال أهل التفسير عند هذه الآية:" الخطاب في هذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم، والحكم عام له ولغيره، وقد استحب بعض السلف التحدث بما عمله من الخير إذا لم يرد به الرياء والافتخار وعُلم الافتداء به، وكان أبو فراس عبد الله بن غالب إذا أصبح يقول: لقد رزقني الله البارحة كذا، قرأت كذا، وصليت كذا، وذكرت الله كذا، وفعلت كذا. فقلنا له: يا أبا فراس، إن مثلك لا يقول هذا! قال يقول الله تعالى:﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ وتقولون أنتم: لا تحدث بنعمة الله" (٦٣).

وقال الإمام ابن القيم:"الفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها، أن المتحدث بالنعمة هو مثن على الله بإظهارها والتحدث بها، شاكرا له ناشرا لجميع ما

---

(٦٢) تفسير الرازي٩/ ٦٥، باختصار.

(٦٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي٢٠/ ١٠٢ وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٨/ ٣٧٢.

أولاه ومقصوده بذلك إظهار صفات الله ومدحه والثناء، وبعث النفس على الطلب منه دون غيره، وعلى محبته ورجائه فيكون راغبا إلى الله بإظهار نعمه ونشرها والتحدث بها فهذا الفعل جائز، وأما الفخر بالنعم فهو أن يستطيل بها على الناس ويريهم أنه أعز منهم وأكبر فيركب أعناقهم ويستعبد قلوبهم ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة فهذا لا يجوز فعله، قال النعمان بن بشير: إن للشيطان مصالي وفخوخا، وإن من مصاليه وفخوخه البطش بنعم الله والكبر على عباد الله والفخر بعطية الله في غير ذات الله" [٦٤].

ومن الأدلة التي استدل بها أصحاب هذ القول، قوله صلى الله عليه وسلم:" **أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع**" [٦٥]، قال الإمام النووي:" قوله صلى الله عليه وسلم "**أنا سيد ولد أدم**" قاله لوجهين أحدهما: امتثال قوله تعالى:﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ والثاني: أنه من البيان الذي يجب عليه تبليغه إلى أمته؛ ليعرفوه ويعملوا بمقتضاه، فيوقروه صلى الله عليه وسلم بما تقتضي مرتبته كما أمرهم الله تعالى، وهذا الحديث دليل لتفضيله صلى الله عليه وسلم على الخلق كلهم" [٦٦].

([٦٤]) الروح، لابن القيم صـ ٢٤٨، باختصار وتصرف يسير.

([٦٥]) رواه مسلم، برقم(٢٢٧٨).

([٦٦]) شرح صحيح مسلم، للنووي١٥/ ٣٧.

ومن الأدلة التي استدل بها أصحاب هذ القول قوله تعالى على لسان نيه إبراهيم عليه السلام حينما دعا ربه قائلا:﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤] ، قال الإمام الشوكاني في تفسيره لهذه الآية "أي: اجعل لي ثناء حسنا في الآخرين الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة، وقد أعطى الله سبحانه إبراهيم ذلك بقوله: ﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾[الصافات: ١٠٨] فإن كل أمة تتمسك به وتعظمه" (٦٧) .

وقال الراغب الأصفهاني:" وليس الثناء في نفسه بمحمود ولا مذموم، وإنما يحمد ويذم بحسب المقاصد، فمن قصده طلب ما يستحق به الثناء على الوجه الذي يستحب، فذلك محمود، وهو طريقة إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم حيث قال: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ أي: اجعلني بحيث أفعل ما إذا مدحت به يكون مادحي صادقا، ومن هذا الوجه ندب الإنسان إذا مدح أن يقول: اللهم اجعلني خيرا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، والمذموم منه أنه يميل إليه من غير تجربة لفعل ما يقتضيه؛ وذلك من أعظم الآفات لمن تحراه، فإنه يفتح باب الحسد، والحسد يفتح باب لكذب، والكذب رأس كل مذموم" (٦٨).

---

(٦٧) فتح القدير، للشوكاني٥/ ٣١٦ باختصار.

(٦٨) الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني صـ ١٩٧.

وخلاصة القول: الأصل في مدح الإنسان لنفسه المنع؛ لما قد يصاحب ذلك من العجب والفخر ويفتح باب التعالي على الناس واحتقارهم، أما من أمن من هذه الآفات، وقصد بالحديث عن نفسه التحدث بفضل الله عليه، أو قصد بذلك التعريف بنفسه عند من لا يعرفه، ففي هذه الحالة لا بأس بذلك، والله أعلم.

المبحث الثاني

أسباب تزكية الأنفس في القرآن الكريم

ذكر الله تعالى في كتابه الكريم جملة من الأمور والأعمال من قام بها وحافظ عليها، زكت بها نفسة، وصلح حاله، وفي هذه الدراسة سوف نقتصر على ذكر الوسائل التي جاء ذكر ها في القرآن الكريم؛ لأننا في دراسة موضوعية، ولن نذكر الوسائل الأخرى التي لم يرد ذكرها في كتاب الله تعالى ـ حفاظا على الوحدة الموضوعية؛ ولأن الأسباب المذكورة في القرآن الكريم تمثِّل أمهات أسباب تزكية الأنفس، وبقية الأسباب الغير مذكورة في القرآن الكريم تبعا لها، وهى مفهومة ضمنا أنها من أسباب التزكية .

وفي هذه الدراسة سوف نقسم أسباب التزكية إلى قسمين، أسباب ينبغي أن نتحلى بها لتزكوا أنفسنا، أسباب ينبغي التخلي عنها لتزكوا بها الأنفس، وسوف نبدأ بذكر أسباب التحلية قبل التخلية؛ لأن الله تعالى ذكر في كتابه الكريم بدأ بذكر الحسنات وقدمها على السيئات، قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤]، وهناك أمر آخر وهو أن فعل الطاعة أقرب لطبيعة النفس من التخلي عن المعصية، فكلنا أصحاب ذنوب ومعاصي، فلا يمكن الوصول إلى تلك الحالة التي يتخلص بها المرء من كافة الذنوب ليبدأ حينها بالطاعات، إذ

الأمر حينئذ عسير فيحصل التسويف ومن ثم الشعور بثقل مهمة التزكية على صاحبها.

قال الإمام ابن تيمية:" إذا قام بالقلب التصديق به والمحبة لله تعالى، لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك، فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه ودليله ومعلوله، كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضا تأثير فيما في القلب، فكل منهما يؤثر في الآخر، لكن القلب هو الأصل، والبدن فرع له، والفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه؛ كما في الشجرة التي يضرب بها المثل لكلمة الإيمان" [٦٩].

فالتحلي بالطاعة مقدم على التخلي عن الذنب؛ إذ أنه أيسر وأدعى لإقدام المرء على الإتيان بالطاعات، وبالجملة فإن كل العبادات والطاعات التي أمرنا الله تعالى بالقيام بها، أو المنهيات التي حرمها الله علينا، بالإضافة إلى الأخلاق والمعاملات التي كلفنا بها ، كل هذه الأعمال منها تزكية النفس وتهذيبها. وسوف ينتظم الحديث في هذا المبحث في مطلبين على النحو التالي:

المطلب الأول: الأسباب التي ينبغي التحلي بها لتزكوا أنفسنا

المطلب الثاني: الأسباب التي ينبغي التخلي عنها لتزكوا أنفسنا

([٦٩]) مجموع فتاوي ابن تيمية ٧/ ٥٤١.

المطلب الأول

الأسباب التي ينبغي التحلي بها لتزكوا أنفسنا

ويشتمل هذ المطلب على سبعة أسباب وهى:

السبب الأول: الإيمان بالله تعالى

السبب الثاني: إقامة الصلاة

السبب الثالث:: إيتاء الزكاة والصدقات

السبب الرابع: الاستئذان

السبب الخامس : محاسبة النفس

السبب لسادس: مجاهدة النفس

السبب السابع: مراقبة النفس

السبب الأول: الإيمان بالله تعالى

إن الإيمان بالله تعالى هو السبب الأولى لتزكية الأنفس، وعليه تقام بقية الأسباب الأخرى لتزكية الأنفس، وبمقدار رسوخ هذ السبب في الأنفس يكون ثبات بقية والأسباب، قال الشيخ سعيد حوى رحمه الله تعالى: "إن نقطة البداية والنهاية في تزكية النفس هي الأيمان بالله تعالى، فهو الذي يطهِّر النفوس من أدران الشرك، وما يستتبعه من عجب وغرور، وكبر وحسد، وغير ذلك، وبقدر ما تزكو النفس تتحقق بثمرات الإيمان الأخرى من صبر وشكر، وعبودية ، وتوكل ورضا" (٧٠).

وقد أشار القرآن إلى هذ السبب في قوله ﴿ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾[فصلت: ٦ – ٧] ، قال العلامة ابن القيم عند هذه الآية:" أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: أن المراد بالزكاة في هذه شهادة أن لا إله إلا الله والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب؛ وذلك طهارته وإثبات إلهيته سبحانه وهو أصل كل زكاة ونماء، فإن التزكي وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة، فإنه إنما يحصل بإزالة الشر؛ فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين

---

(٧٠) المستخلص في تزكية الأنفس، لسعيد حوى صـ٢٨، بتصرف يسير.

جميعا فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو الإيمان والتوحيد، والتزكية جعل الشيء زكيا إما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر عنه، كما يقال عدلته وفسقته إذا جعلته كذلك في الخارج أو في الاعتقاد والخبر" [٧١]

قال ابن عباس:" يعني: الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله، وكذا قال عكرمة، وهذا كقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ والمراد بالزكاة هاهنا: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك" [٧٢].

والذي يظهر أن هذا القول هو الأنسب للسياق؛ وذلك أن المشركين لا يطالبون بدفع الزكاة أصلا؛ لأنهم غير مسلمين، وهم مطالبون قبل ذلك بالنطق بالشهادتين والدخول في الإيمان لتزكوا أنفسهم بالإيمان.

والإيمان بالله تعالى وتوحيده، هو السبب الأول لتزكية الأنفس وذلك" أن الإيمان بالله تعالى صلة كريمة بين العباد وربهم، ومن حق هذه الصلة بل أثرها الأول تزكية النفوس وتقويم الأخلاق وتهذيب الأعمال، ولن يتم ذلك إلا إذا تأسست فى النفس عاطفة حية تترفع بها أبدا عن الخطايا وتستشعر

([٧١]) إغاثة اللهفان، لابن القيم، صـ ٤٩، بتصرف.

([٧٢]) تفسير ابن كثير ٧/ ١٦٤، باختصار.

الغضاضة من سفاسف الأمور، أما الإلمام بالمحاقر دون تورع والوقوع فى الصغائر دون اكتراث فذلك دلالة فقدان النفس لإيمانها" [٧٣].

وقد جعل الله العمل على تزكية النفس من الصفات الأساسية لأهل الإيمان الذين يستحقون الفلاح في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ – ٤]، وللعلامة الشنقيطي رحمه الله تعالى لفته لطيفة في المعنى المراد بالزكاة في هذه السورة، حيث يرى أن الراجح من معانيها من معانيها هو تزكية النفس وتطهيرها قال رحمه الله: " في المراد بالزكاة هنا وجهان من التفسير معروفان عند أهل العلم، **أحدهما**: أن المراد بها زكاة الأموال، وعزاه ابن كثير للأكثرين [٧٤] و**الثاني**: أن المراد بالزكاة هنا: زكاة النفس أي تطهيرها من الشرك، والمعاصي بالإيمان بالله، وطاعته وطاعة رسله عليهم الصلاة والسلام، وعلى هذا فالمراد بالزكاة كالمراد بها في قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾[الشمس: ٩ – ١٠] وقد يستدل لهذا القول بثلاث قرائن: الأولى: أن هذه السورة مكية بلا خلاف، والزكاة إنما فرضت بالمدينة كما هو معلوم، فدل على أن قوله

([٧٣]) خلق المسلم، لمحمد الغزالي، صـ ١٣٢باختصار يسير.

([٧٤]) تفسير ابن كثير ٥/ ٤٦٢، وتفسير الطبري٩/ ١٠، وزاد المسير، لابن الجوزي٤/ ٤٠٣.

تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ نزل قبل فرض زكاة الأموال المعروفة، فدل على أن المراد به غيره، والقرينة الثانية: هي أن المعروف في زكاة الأموال: أن يعبر عن أدائها بالإيتاء كقوله تعالى:﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[البقرة: ٤٣]، وهذه الزكاة المذكورة هنا، لم يعبر عنها بالإيتاء، بل قال تعالى فيها:﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ فدل على أن هذه الزكاة: أفعال المؤمنين المفلحين، وذلك أولى بفعل الطاعات، وترك المعاصي من أداء مال، الثالثة: أن زكاة الأموال تكون في القرآن عادة مقرونة بالصلاة، من غير فصل بينهما كقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، وهذه الزكاة المذكورة هنا فصل بين ذكرها، وبين ذكر الصلاة بجملة ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾، ولا شك أن تطهير النفس بأعمال البر، ودفع زكاة المال كلاهما من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الجنة "[٧٥].

وقال ابن كثير:" الأكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة، وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ [الشمس: ٩ – ١٠] ويحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال؛ فإنه

([٧٥]) أضواء البيان، للشنقيطي٥/ ٣١١، باختصار وتصرف.

من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم" [٧٦] .

وهذا الإيمان الذي يؤدي إلى تزكية النفس" ليس مجرد إعلان المرء بالسانه، أو كلمات يرددها بين الحين والآخر، إنما هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، فهو عمل نفسي يبلغ أغوار النفس ويصحبه الخضوع والطاعة والتسليم والعبادة، وكلما ازداد الإيمان رسوخا أثمر ثمراته اليانعة في تزكية النفس واستقامة السلوك" [٧٧].

ومن اهتمام القرآن بأمر التزكية نجد أن الله تعالى أمر سيدنا موسى عليه السلام أن يعرضها على فرعون حين توجه إليه يدعوه إلى الإيمان بالله تعالى فقال له آمرا: ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ ﴾ [النازعات: ١٧ – ١٨] قال الإمام الطبري:" وموسى لم يدع فرعون إلى أن يتصدق وهو كافر، إنما دعاه إلى الإسلام، فقال: تزكى: أي تكون زاكيا مؤمنا" [٧٨]، وقال ابن عاشور:" والمعنى: حُثَّه على أن يستعد لتخليص نفسه من العقيدة الضالة، التي هي خبث مجازي في النفس، فيقبل إرشاد من يرشده إلى ما به

([٧٦]) تفسير ابن كثير٥/ ٤٦٢، باختصار.

([٧٧]) الإيمان والحياة، ليوسف القرضاوي، صـ ١٩.

([٧٨]) تفسير الطبرى٢٤/ ٢٠١، وتفسير ابن كثير٨/ ٣١٥.

زيادة الخير، فإن فعل المُطَاوَعة يؤذن بفعل فاعل يعالج نفسه ويروضها إذ كان لم يهتد أن يزكي نفسه بنفسه" (٧٩).

وفي قصة ابن أم مكتوم لماء جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم مما علمه الله تعالى، وصف الله بحثه عن الإسلام والإيمان بأنه تزكي فقال تعالى:﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ [عبس: ٣]، قال الإمام الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وما يدريك يا محمد لعل هذا الأعمى الذي عبست في وجهه يتزكى و يتطهر من ذنوبه، قال ابن زيد، في قوله: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ يسلم" (٨٠) ، "وقال مقاتل: لعله يؤمن" (٨١).

واخلف أهل التفسير في عودة ضمير لعله في قوله تعالى: قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ حكاهما الإمام الرازي بقوله:" **الأول**: أن الضمير يعود لابن أم مكتوم، أي شيء يجعلك داريا بحال هذا الأعمى لعله يتطهر بما يتلقن منك، من الجهل أو الإثم، ولعل ذلك العلم الذي يتلقفه عنك يطهره عن بعض مالا ينبغي، وهو الجهل والمعصية، أو يشغله ببعض ما ينبغي وهو الطاعة

---

(٧٩) تفسير الطبري٢٤/ ٢٠١.

(٨٠) تفسير الطبري٢٤/ ٢١٩.

(٨١) زاد المسير، لابن الجوزي٦/ ١٢٢.

الثاني: أن الضمير في ﴿ لَعَلَّهُۥ ﴾ يعود للكافر، بمعنى أنت طمعت في أن يزكى الكافر بالإسلام أو يذكر فتقربه الذكرى إلى قبول الحق" [٨٢].

ورجح الإمام الشوكاني القول الأول، [٨٣]، وهو الظاهر؛ لأن صدر سورة عبس في قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ ﴾ تتحدث عن ابن أم مكتوم الذي جاء للنبي صلى الله عليه وسلم طالبا التزكي بالإسلام والإيمان، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بادئ الأمر، والما عاتبه ربه في ذلك كان يكرمه بعد ذلك، والمقطع الثاني من السورة تتحدث عن الكافر الذي أعرض عن التزكية بالإسلام والإيمان، فقال الله عنه: ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ ﴾ [عبس: ٥ – ٧].

قال سيد قطب معلقاً على هذه الآية:" أما من أظهر الاستغناء عنك وعن دينك وعما عندك من الهدى والخير والنور والطهارة فأنت تتصدى له وتحتفل بأمره، وتجهد لهدايته، وتتعرض له وهو عنك معرض! ﴿ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾. وما يضيرك أن يظل في رجسه ودنسه؟ وأنت لا تُسأل عن ذنبه، وأنت لا تُنصر به، وأنت لا تقوم بأمره " [٨٤].

([٨٢]) تفسير الرازي١٦/ ٣٥٤باختصار يسير.

([٨٣]) فتح القدير، للشوكاني٧/ ٤١٨.

([٨٤]) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٧/ ٤٥٥.

والمتأمل في هذين الموقفين من مواقف التزكية الإيمانية في سورة عبس يجد أن ابن أم مكتوم آمن بالله تعالى فنفعه الإيمان فأصبح به زكيا تقيا، وأمَّا من أعرضوا عن الإ يمان بالله ورفضوا تزكية رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ماتوا على الكفر والعناد، في الآخرة مأواهم جهنم وبئ المهاد.

لهذا كان أول الواجبات أن يطهر العبد نفسه من أنجاس الشرك، ويزكيها بالإيمان بالله وتوحيده، بل لا تزكو النفس بسائر أنواع العبادات حتى تزكو بالإيمان بالله تعالى أولا، قال شيخنا العلامة، الشيخ عبد المجيد بن عزيز الزنداني:" لإيمان بالله أساس الدين، وأول واجب على الإنسان، وعليه يقوم الإيمان ببقية أركان الإيمان؛ إذ لا يصح إيمان أحد بشيء من أركان الإيمان وشعبه وسننه إلا بعد إيمانه بالحق تبارك وتعالى، فالإيمان بالله تعالى هو أساس جميع أعمال، وعناية المسلمين بهذا العلم مستمدة من عناية القرآن به، فقد كان همهم الأكبر هو الدعوة إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة أي بما يقدمه علم الإيمان من أدلة وبراهين لتثبيت اليقين، ودعوة الناس للإيمان، وإخلاص العبادة لله، والرد على كل ما يعارض الإيمان.

ولما أهمل المسلمون بناء الإيمان الصحيح الذي يقوم على العلم والدليل والبرهان الذي يثمر اليقين بدأ الخلل يتسرب إلى إيمان كثير منهم، وإلى أعمالهم وانعكس ذلك ضعفا في عبادتهم وأخلاقهم وسلوكهم، وأخذ الفساد في

الاتساع حتى سهل على أعدائهم الهيمنة عليهم، واحتلال بلادهم واستذلالهم في أرضهم وديارهم" [٨٥].

(٨٥) علم الإيمان، لشيخنا العلامة، الشيخ عبد المجيد بن عزيز الزنداني صـ٦ باختصار.

السبب الثاني: إقامة الصلاة

من طبيعة الإنسان أن يصدر منه الخطأ والزلل، وأن يقع في المعاصي والذوب بين الفينة والأخرى، وإذا تكاثرت عليه الذنوب والمعاصي ربما تهلكه؛ لهذ من رحمة الله بعباده أن جعل لهم مكفرات تطهر أنفسهم وتزكي أرواحهم من الذنوب والمعاصي، ومن هذه المطهرات الصلاة، فقد جعلها الله مطهر يومي للذنوب والمعاص، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا لا يبقى من درنه شيء، قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا**[٨٦]، وعن على بن زيد عن أبي عثمان قال: كنت مع سلمان الفارسي تحت شجرة وأخذ منها غصنا يابسا فهزه حتى تحات ورقه ثم قال: يا أبا عثمان ألا تسألني لم أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعله؟ فقال هكذا فعل بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا معه تحت شجرة، فأخذ منها غصنا يابسا فهزه حتى تحات ورقه فقال: يا سلمان ألا تسألني لم أفعل هذا قلت ولم تفعله؟ قال ان المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما يتحات هذا الورق وقال:﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ

---

(٨٦) صحيح مسلم، برقم(٦٦٧).

ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود:١١٤] [٨٧]، وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطوتاه إحداهما تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة**" [٨٨] .

وقد أشار القرآن الكريم إلى الصلاة سبب من أسباب تزكية النفس في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[فاطر: ١٨] قال ابن عاشور في استنباط دقيق وهو يربط بين أثر الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة في تزكية النفس:" إن الذين خشوا ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة هم ممن تزكى فانتفعوا بتزكيتهم، والمعنى: إنما ينتفع بالنذارة الذين يخشون ربهم بالغيب فأولئك تزكوا بها، ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه، والمقصود من القصر في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ ﴾ أن قبولهم النذارة كان لفائدة أنفسهم، ففيه تعريض بأن الذين لم يعبأوا بنذارته تركوا تزكية أنفسهم بها، فكان تركهم ضرا على أنفسهم،﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

([٨٧]) مسند أحمد برقم (٢٣٧٥٨)، وقال عنه شعيب الأرناؤوط : حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف علي بن يزيد.

([٨٨]) صحيح مسلم، برقم(١٠٧٠).

أي: المصير كله إلى الله سواء فيه مصير المتزكي ومصير غير المتزكي، أي وكل يجازى بما يناسبه" (٨٩).

وقال السعدي:" أي هؤلاء الذين يقبلون النذارة وينتفعون بها، أهل الخشية لله بالغيب، أي: الذين يخشونه في حال السر والعلانية، والمشهد والمغيب، وأهل إقامة الصلاة، بحدودها وشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها؛ لأن الخشية لله تستدعي من العبد العمل بما يخشى من تضييعه العقاب، والهرب مما يخشى من ارتكابه العذاب، والصلاة تدعو إلى الخير، وتنهى عن الفحشاء والمنكر" (٩٠).

وقد جعل الله إقامة الصلاة من أسباب التزكية والفلاح، فقال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤ – ١٥]، قال ابن عاشور:" وقد رُتِّبَتْ هذه الخصال الثلاث على الآية على ترتيب تولدها، فأصلها: إزالة الخباثة النفسية من عقائد باطلة وحديث النفس، وهو المشار إليه بقوله:﴿تَزَكَّىٰ﴾، ثم استحضار معرفة الله بصفات كماله وحكمته ليخافه ويرجوه وهو المشار بقوله:﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾ ثم الإقبال على طاعته وعبادته

(٨٩) التحرير والتنوير، لابن عاشور ١١/ ٤٦٨ باختصار.

(٩٠) تفسير السعدي صـ٦٨٧.

وهو المشار إليه بقوله:﴿ فَصَلَّىٰ ﴾ والصلاة تشير إلى العبادة وهي في ذاتها طاعة وامتثال يأتي بعده ما يشرع من الأعمال" [٩١].

ومما ينبغي مراعاته في أمر الصلاة حتى تؤدي دورها المنشود في تزكية النفس وتطهيرها، أن يجاهد المسلم نفسه على الخشوع فيها، فالله تعالى ربط فلاح العبد في صلاته متى ما أدها بخشوع وخضوع، قال تعالى:﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ ﴾ [المؤمنون: ١ – ٢] والخشوع المراد في الصلاة ينبغي أن يكون فيه أمرين كما ذكر ذلك الإمام إبن تيميه، أحدهما: السكون والطمأنينة، والثاني: التواضع والذل لله [٩٢].

قال الإمام الغزالي:" والمصلي مناج ربه عز وجل والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ألبته، وبيانه أن الزكاة إن غفل الإنسان عنها مثلا فهي في نفسها مخالفة للشهوة شديدة على النفس، وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسطوة الهوى الذي هو آلة للشيطان عدو الله، فلا يبعد أن يحصل منها مقصود مع الغفلة، وكذلك الحج أفعاله شاقة شديدة وفيه من المجاهدة ما يحصل به الإيلام كان القلب حاضرا مع أفعاله أو لم يكن؟ أما الصلاة فليس فيها إلا

([٩١]) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٣٠/ ٢٨٨.

([٩٢]) كتاب الإيمان، لابن تيمية صـ ٢٤.

ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود، وهذه الأمور ينبغي أن تكون معبرةً عما في الضمير ولا تكون معبرة إلا بحضور القلب " [٩٣].

ويصف العلامة ابن القيم حال من يد خلون الصلاة، ويكون همهم الخلاص منها لا الخشوع فيها وتزكية أنفسهم بها، قال رحمه الله: " تأمل كيف قال صلى الله عليه وسلم: "**يا بلال أقم الصلاة، أرحنا بها** "[٩٤]، ولم يقل:" أرحنا منها "، كما يقوله المتكلف الكاره لها، الذي لا يصليها إلا على إغماض وتكلُّف، فهو في عذاب ما دام فيها، فإذا خرج منها وجد راحة قلبه ونفسه؛ وذلك أن قلبه ممتلئ بغيره، والصلاة قاطعة له عن أشغاله ومحبوباته الدنيوية، فهو معذب بها حتى يخرج منها؛ وذلك ظاهر في أحواله فيها، من نقرها والتفات قلبه إلى غير ربه فيها، وترك الطمأنينة والخشوع فيها، فهو يؤديها على أنقص الوجوه، ففرق بين من كانت الصلاة لجوارحه قيدا ثقيلا، ولقلبه سجنا ضيقا حرجا، ولنفسه عائقا، وبين من كانت الصلاة لقلبه نعيما، ولعينه قرة ولجوارحه راحة، و لنفسه بستانا ولذة، فالأول الصلاة سجن لنفسه، وتقييد لجوارحه عن التورط في مساقط الهلكات، وقد ينال بها التكفير والثواب، أو ينال من الرحمة بحسب عبوديته لله تعالى فيها، وقد يُعاقب على ما نقص منها، والقسم الآخر: الصلاة بستان له، يجد فيها راحة قلبه، وقرة

([٩٣]) إحياء علوم الدين، للغزالي ١/ ١٦٦، باختصار وتصرف يسير.

([٩٤]) صحيح وضعيف سنن أبي داود، للألباني، برقم (٤٩٨٥).

عينه، ولذة نفسه، وراحة جوارحه، ورياض روحه، فهو فيها في نعيم يتفكه، وفي نعيم يتقلب يوجب له القرب الخاص والدنو، والمنزلة العالية من الله عز وجل، ويشارك الأولين في ثوابهم، بل يختص بأعلاه، وينفرد دونهم بعلو المنزلة، التي هي قدر زائد على مجرد الثواب" (٩٥).

ومما ينبغي مراعاته في أمر الصلاة حتى تؤدي دورها المنشود في تزكية النفس وتطهيرها أن تحقيق الهدف من إقامتها وهو أن تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، وقد بين الله تعالى لنا في كتابه ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، قال الإمام الشوكاني:" أي داوم على إقامتها، واستمر على أدائها كما أمرت بذلك، وجملة:﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ ﴾ تعليل لما قبلها، والفحشاء ما قبح من العمل، والمنكر ما لا يعرف في الشريعة، أي تمنعه عن معاصي الله، وتبعده منها، ومعنى نهيها عن ذلك أن فعلها يكون سببا للانتهاء، والمراد هنا الصلوات المفروضة" (٩٦).

وقال سيد قطب:" إقامتها على أصولها التي تجعل منها صلة حقيقية بين العبد والرب؛ وعنصراً تهذيبياً وتزكوياً وفق المنهج الرباني القويم؛ وناهيا عن

---

(٩٥) الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة، لابن القيم، صـ ٢٤ باختصار يسير.

(٩٦) فتح القدير، للشوكاني٥/ ٤٤٤.

الفحشاء والمنكر حياء من الوقوف بين يدي الله بحصيلة من الفحشاء والمنكر " [٩٧].

ولكي تؤدي الصلاة دورها في تزكية العبد من الذنوب الخطايا، لابد من أن يحرص العبد على أدائها بكيفيتها التي أرادها الله تعالى، وهذ ما أخبر عنه رسو الله صلى الله عليه وسلم بقوله: فعن عمرو بن سعيد بن العاص حدثني أبي عن أبيه قال كنت عند عثمان فدعا بطهور فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:"**ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤت كبيرة وذلك الدهر كله**" [٩٨] ولا شك أن هذ التكفير إنما يكون لصغائر الذنوب السيئات، أما كبائرها فتحتاج إلى توبة صادقة من قبل العبد بينه وبين ربه.

وهكذا تكون الصلاة سببا من أسباب تزكية النفس متى أقامها صاحبها بالكيفية أرادها الله تعالى، بأن حافظ عليها في أوقاتها، وحرص على الخشوع فيها، وكانت ناهية له عن الفحشاء والمنكر؛ لهذ فرضها الله تعالى وجعلها تتكرر في اليوم خمس مرات" ولعلَّ هذا من أسرار تكرار الصلاة المفروضة في اليوم خمس مرات، ينتزع فيه الإنسان نفسه من دنياه وما فيها من أحقاد

([٩٧]) في ظلال القرآن، لسيد قطب٢/ ٣٣٠.

([٩٨]) رواه مسلم، برقم(٣٣٥).

وصراعات، ويقف بين يدي مولا لحظات خاشعة يخفف بها عن نفسه من هموم الحياة ومتاعبها، ويغذي الجانب الروحي من كيانه ذلك الجانب الذي لا يغديه إلا معرفة الله سبحانه وحسن الصلة به" [٩٩].

وكلما كان حظ العبد من الصلاة وفيرا، كان حظه من التطهير والتزكية كثيرا، فمن حافظ على الفرائض، وأكثر من السنن والنوافل في يومه وليله، كان حظه من ذلك عظيما، من طهارة النفس وتزكيتها.

([٩٩]) العبادة في الإسلام، ليوسف القرضاوي صـ ٢١٦.

السبب الثالث: إيتاء الزكاة والصدقات

فطر الله تعالى الإ نسان على محبة المال، والحرص على جمعة، كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، قال الإمام الطبري في تفسير هذه الآية:" تحبون جمع المال أيها الناس واقتناءه حبا كثيرا شديدا، من قولهم: قد جمَّ الماء في الحوض: إذا اجتمع" (١٠٠).

والنفوس شحيحة وبخيلة في إنفاق المال في وجوه الخير وطرق البر، وقدبَيَّنَ الله تعالى لنا أن مجاهدة النفس من شحها طريق للفوز للفلاح، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر:٩] قال سعيد بن جبير:" شُح النفس هو أخذ الحرام، ومنع الزكاة، قال ابن زيد: من لم يأخذ شيئا نهاه الله عنه ولم يمنع شيئا أمره الله بأدائه، فقد وُقِيَ شح نفسه، والمعنى: أن الأنصار ممن وقوا شح أنفسهم حين طابت أنفسهم بترك الفيء للمهاجرين " (١٠١).

وقد بَيَّن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عاقبة الشح، فعن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "..... **واتقوا الشح، فإن**

---

(١٠٠) تفسير الطبري، ٢٤/ ٤١٥.

(١٠١) فتح القدير، للشوكاني٧/ ١٩٠، وينظر: زاد المسير، لابن الجوزي٩/ ٩.

الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم" (١٠٢).

الزكاة ركن من أركان الإسلام الخمسة، وقد فرضت في السنة الثانية من الهجرة، "وفرضيتها معلومة من الدين بالضرورة ، ودليل فرضيتها: الكتاب والسنة والاجماع، وعرفها الفقهاء بأنها: تمليك مال مخصوص لمستحقه بشرائط مخصوصة والمعنى: أن الذين يملكون نصاب الزكاة يفترض عليهم أن يعطوا الفقراء ومن على شاكلتهم من مستحقي الزكاة، قدرا معينا من أموالهم بطريق التمليك " (١٠٣).

وقد ذكر الله في كتاب أن إنفاق الأموال بإخراج الزكاة والصدقات سبب من أسباب تزكية النفس في قوله تعالى: ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[التوبة: ١٠٣]، قال ابن عباس:" لما أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا لبابة وصاحبيه، انطلق أبو لبابة وصاحباه بأموالهم، فأتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: خذ من أموالنا فتصدق بها عنا، وصلِّ علينا واستغفر لنا وطهرنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"**لا آخذ منها شيئا حتى أُومر**"، فأنزل الله:﴿ خُذۡ مِنۡ

---

(١٠٢) صحيح مسلم، برقم (٤٦٧٥).

(١٠٣) الفقه على المذاهب الأربعة، لعبد الرحمن الجزائري١/ ٩٤٦باختصار.

﴿أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾أي: استغفر لهم من ذنوبهم التي كانوا أصابوا، فلما نزلت هذه الآية أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم جزءا من أموالهم، فتصدق بها عنهم" [١٠٤] وهذه الآية دالة على أن الصدقة تطهر وتزكي، قال ابن عاشور، فقوله تعالى:﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ إشارة إلى مقام التخلية عن السيئات، وقوله: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ إشارة إلى مقام التحلية بالفضائل والحسنات، فالمعنى أن هذه الصدقة كفارة لذنوبهم ومجلبة للثواب العظيم" [١٠٥].

وإخراج الزكاة والصدقات فيها تزكية وتطهير لصاحب المال ولماله وللفقير، قال الشيخ الشعراوي عند هذه الآية:" وعلى من يعود قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾؟ السطحيون في الفهم يقولون: إنها تُطَهِّرْ من نأخذ منه المال، وتزكى المال الذي نأخذ منه، لكن من يملك عمقا في الفهم يقول: ما دامت هناك في هذه الآية عناصر، فضروري أن يعود التطهير والتزكية عليها، إنها تطهر وتزكي صاحب المال، وكذلك تطهر وتزكي المال المأخوذ، وأيضا تظهر وتزكي المأخوذ له وهو الفقير؛ لأن التطهير معناه إزالة القذر، والتزكية نماء، القذارة أمر عارض على الشيء

([١٠٤]) تفسير الطبري،٩/ ٤٥٥.

([١٠٥]) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٣٧٦/٦،

الذي نغسله ونطهره، وتنمية له بشيء عائد عليه فيزداد، وهكذا تطهر الصدقة وتزكى عناصر الفعل كلها.

أما كيف تنمي صاحب المال؟ وأنت قد أخذت منه ماله؟ فتزكيته أنك تطمئنه أنه إذا احتاج فستعطيه، وبهذا يعرف أنه لا يعيش في المجتمع بمفرده، فكأنك تطمئنه وتقول له: أنت لو احتجت فلن تضيع، وبذلك تنمي تواجده وثقته، وطهرته أيضا من أن يكون في ماله شبهة، أما من ناحية المال نفسه، فالصدقة تطهر المال؛ لأن المال قد يزيد فيه شيء فيه شبهة فالزكاة تطهره، وتكون الزكاة الصدقة تطهيرا للآخذ، فالآخذ حين يأخذ من مال غيره، وهو عاجز عن الكسب فهو يتطهر من الحقد على ذي النعمة؛ لأنه وصله بعض من المال الذي عند ذي النعمة، فلا يحقد عليه ولا يحسده، فهو إن رأى عنده خيرا، دعا له بالزيادة؛ لأن بعضا من الخير يعود عليه، فقوله سبحانه وتعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ راجع لكل هذه العناصر في الآية" (١٠٦).

ويذكر الإمام ابن الجوزي جملة من الأمور والتي من تحقق بها تكون الزكاة قد حققت الهدف المرجو منها في تزكية نفس صاحبها، قال رحمه الله تعالى: " وينبغي للمتيقظ أن يفهم المراد من الزكاة ثلاثة أشياء، **أحدها:** الابتلاء بإخراج المحبوب **والثاني:** التنزه عن صفة البخل المهلك **والثالث:**

---

(١٠٦) تفسير الشعراوي٩/ ١ ٥٤٧ باختصار وتصرف يسير.

شكر نعمة المال فليتذكر إنعام الله عليه إذ هو المُعْطِي لا الآخذ، وعليه ألا يؤخرها إذا حال الحول؛ لأنها حق للفقير، ويجوز تقديمها على الحول، ولا يجوز إعطاء العوض باعتبار القيمة، وينبغي أن ينتقي الأجود للفقير، فإن الذي يعطيه هو الذي يلقاه يوم القيامة، فليتخير لنفسه ما يتصدَّق به، وأن يقدم فقراء أهله، ويتحرى بها أهل الدين، ولا يبطل صدقته بالمن والأذى، وليعطِ الفقير بانشراح ولطف، حتى كأن الفقير هو الذي ينعم بما يأخذه، وليستر عطاءه أهل المروءات؛ فإنهم لا يؤثرون كشف ستر الحاجة، فإن خطر له أن الزكاة ينبغي أن تشاع لئلا يتهم الإنسان، ففي من لا يستحي إذا أخذها كثرة فليشعها عند أولئك وليترك أرباب الأنفة تحت ستر الله عز وجل" (١٠٧).

قال أهل التفسير:" ولأهمية إنفاق الأموال في تزكية الأنفس من داء الشح والبخل، فقد جعل الله في المال حقا غير الزكاة، فالزكاة وصفها الله تعالى في كتابه الكريم بأنها حق معلوم كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ [المعارج: ٢٤]، وذكر الله تعالى أن في المال حق غير معلوم ولا مقدر، ويراد به الصدقات والنفقات الغير واجبه، قال تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٩] (١٠٨).

---

(١٠٧) التبصرة، لابن الجوزي٢/٢٥٠..

(١٠٨) تفسير القرطبي١٧/٣٨، وزاد المسير، لابن الجوزي٥/٤٢١، وفتح القدير، للشوكاني٧/٤١.

وقد بين الله تعالى أن هذ النوع من النفقات أيضا سبب من أسباب تزكية الأنفس، وأنها سبب لوقاية صاحبها من نار جهنم،قال تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [الليل: ١٤ – ١٨] ، قال الإ مام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: " وقوله: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ أي: وسيزحزح عن النار التقي النقي، ثم فسره بقوله: ﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ أي: يصرف ماله في طاعة ربه؛ ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق [١٠٩]، رضي الله عنه، حتى إن بعض المفسرين حكى الإجماع على ذلك [١١٠] ، ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ عام، وهو قوله تعالى: ﴿ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾، ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة؛ فإنه كان صدِّيقا زكِّيا تقيًّا كريما جوادا باذلاً لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول الله، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده

([١٠٩]) أسباب النزول، للواحدي صـ ٣٤٠، ولباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي صـ ٢١٢.

([١١٠]) ينظر في ذلك: تفسير ابن عطية٥/٤٩١، والدر المنثور، للسيوطي١٠/٢٨٢، وأضواء البيان، للشنقيطي٨/٥٥٣، وتفسير القرطبي٢٠/٩، وزاد المسير، لابن الجوزي٦/١٦٧.

منة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل" [١١١] .

قال سعيد بن المسيب: "بلغني أن أمية بن خلف قال لأبي بكر حين قال له أبو بكر: أتبيعني بلالا؟ فقال: نعم أبيعه بنسطاس(نسطاس عبدا لأبي بكر) وكان مشركا، فحمله أبو بكر على الإسلام، فأبى، فباعه أبو بكر ببلال، فقال المشركون: ما فعل أبو بكر ببلال هذا إلا ليد كانت لبلال عنده، فنزلت ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ "[١١٢] .

فأبو بكر رضي الله عنه أزكى هذه الأمة بعد الانبياء والمرسلين، كيف لا وقد بشَّره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، وأنه يُدعى يوم القيامة من أبوابها الثمانية..! ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال:" **من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة** " فقال أبو بكر رضي الله عنه بأبي وأمي: يا رسول الله ما على من دعي من تلك

([١١١]) تفسيرا ابن كثير٨/٤٢٢باختصار.

([١١٢]) تفسير القرطبي٢٠/٨٩، باختصار، وتصرف يسير.

الأبواب من ضرورة فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟، قال "**نعم وأرجو أن تكون منهم** " (١١٣).

ولكي تؤدي الزكاة والصدقات دورها المرجو في تزكية نفس صاحبها، عليه أن يخرجها مما تحب نفسه؛ لأن الله تعالى قد قال في كتابه الكريم: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴾ [آل عمران: ٩٢]، قال كثير من أهل التأويل البر الجنة؛ لأن بر الرب بعبده في الآخرة، إكرامه إياه بإدخاله الجنة" (١١٤)

لهذا لما عَلِمَ الصحابة ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ ما أعد لهم الله من نعيم في الجنة مقابل ما أنفقوا من أموالهم في وجوه البر والخير، كانوا مسارعين إلى الإ نفاق ابتغاء مرضاة الله تعالى، طيبة بذلك أنفسهم، ولا يُتْبِعون ما أنفقوا منا ولا أذى، فعن أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالا، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس فلما نزلت هذه الآية:﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾[آل عمران: ٩٢] قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن الله يقول في كتابه﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾، وإن أحب أموالي إلي بيرحاء

---

(١١٣) صحيح البخاري، برقم(١٧٩٨).

(١١٤) تفسير الطبري،٦/٥٨٧.

وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث شئت، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **بخ ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، قد سمعت ما قلت فيها وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**" فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه" (١١٥) .

ومما ينبغي مراعاته عند إخراج الزكاة والصدقات؛ حتى تؤديان دوريهما في تزكية النفس، أن لا يتبعهما بالمن والأذى؛ لأن ذلك يدل على خبث النفس وعدم زكاتها، بالإضافة إلى ذلك أن هذ الفعل المشين يبطل أجر الزكاة والصدقات قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة: ٢٦٤.] قال صاحب المنار: " في هذه الآية مبالغة في التنفير عن رذيلتي المن والأذى، فالله غني بذاته وبما له مُلْك السماوات والأرض عن صدقة عباده فلا يأمر الأغنياء بالبذل في سبيله لحاجة إليها، وإنما يريد أن يطهرهم ويزكيهم ويؤلف بين قلوبهم، ويصلح شئونهم الاجتماعية ليكونوا أعزاء بعضهم لبعض أولياء، والمن والأذى ينافيان ذلك، ووجه الشبه بين المان والمؤذي بصدقته وبين المرائي بنفقته، أن كلا منهما

---

(١١٥) صحيح مسلم، برقم(١٦٦٤).

غشَّ نفسه فألبسها ثوب زور يوهم رائيه ما لا حقيقة له، فلا تكاد تجد مناناً ولا مرائيا غير مذموم ممقوت، وأما في الآخرة؛ فلأن المن والأذى كالرياء في منافاة الإخلاص، ولا ثواب في الآخرة إلا للمخلصين في أعمالهم الذين يتحرون بها سنن الله تعالى في تزكية نفوسهم وإصلاح حال الناس" (١١٦).

إذ كان هذ حال من أنفق أمواله وأبطل صدقاته بالمن والأذى، فإنه في المقابل ذكر الله حال من أنفق أموله ابتغاء مرضاة الله تعالى وطمعا في حصوله من ربه على زكاة نفسة وتثبيتا لها على فعل الخير فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾ [البقرة: ٢٦٥]، قال الإمام ابن القيم: " فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص، والتثبيت عند النفقة، وهو إخراج المال بقلب ثابت، قد انشرح صدره بإخراجه، وسمحت به نفسه، وخرج من قلبه قبل خروجه من يده، فهو ثابت القلب عند إخراجه، غير جزع ولا هلع، ولا متبعه نفسه، ترجف يده وفؤاده، ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق بحسب مصادفته لموقعه، وبحسب طيب المنفق وزكائه، تحت هذا المثل من الفقه: أنه سبحانه شبه الإنفاق بالبذر، فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره باذر

---

(١١٦) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا٣/ ٥٥ باختصار وتصرف.

ماله في أرض زكية فمغله بحسب بذره، وطيب أرضه وتعاهد البذر بالسقي، ونفي الدغل، والنبات الغريب عنه، فإذا اجتمعت هذه الأمور ولم يحرق الزرع نار، ولا لحقته جائحة جاء أمثال الجبال، وكان مثله كمثل جنة بربوة، وهي المكان المرتفع الذي تكون الجنة فيه نصب الشمس والرياح فتتربى الأشجار هناك أتم تربية، فنزل عليها من السماء مطر عظيم القطر، متتابع فرواها ونماها فأتت أكلها ضعفي ما يؤتيه غيرها، بسبب ذلك الوابل، فإن لم يصبها وابل فطل، أي مطر صغير القطر يكفيها، لكرم منبتها تزكو على الطل، وتنمو عليه، مع أن في ذكر نوعي الوابل والطل إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير والقليل، فمن الناس من يكون إنفاقه وابلا، ومنهم من يكون إنفاقه طلا. والله لا يضيع مثقال ذرة" (١١٧).

بهذا تكون النفقات بأنواعها ـ من زكاة وصدقات ـ سبب من أسباب تزكية النفس؛ متى ما أدها صاحبها بالكيفية التي أرادها الله تعالى" فهى طهارة لنفس الغني من الشح والبخل والتعالي على الناس، وهى كذلك طهارة لنفس الفقير من العداوة والحسد والأحقاد، وهى ثالثا طهارة للمال ن دنسه وتنمية له" (١١٨).

---

(١١٧) التفسير القيم، لابن القيم صـ ١٥٢.

(١١٨) العبادة في الإسلام، ليوسف القرضاوي صـ ٢٥٩.

السبب الرابع: الاستئذان

وقد أشار القرآ ن الكريم إلى هذا السبب في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨ ﴾ [النور: ٢٧ – ٢٨] ، وقد جاء في سبب نزول هذه الآية أنه:" جاءت امرأة من الأنصار فقالت: يا رسول الله إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد، لا والد ولا ولد، فيأتي الأب فيدخل علي وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي وأنا على تلك الحال فكيف أصنع فنزلت هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ الآية[١١٩].

وقال مقاتل: " كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه، لا يُسَلِّم عليه، ويقول: حُيِّيتَ صباحا وحييت مساء، وكان ذلك تحية القوم بينهم، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم بيته، فيشق ذلك على الرجل، ولعله يكون مع أهله، فغير الله ذلك كله، في ستر وعفة، وجعله نقيا نزها من الدنس والقذر والدرن، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ

([١١٩]) أسباب النزول، للواحدي صـ ٢٤٣.

﴿ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾، قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية:" الاستئناس: الاستفعال من الأنس، وهو أن يستأذن الرجل أهل البيت في الدخول عليهم، مخبرا بذلك من فيه، وليؤذنهم أنه داخل عليهم، فليأنس إلى إذنهم له في ذلك، ويأنسوا إلى استئذانه إياهم، وتأويل الكلام: يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تسلموا وتستأذنوا، وذلك أن يقول أحدكم: السلام عليكم، أأدخل؟ وهو من المقدم الذي معناه التأخير، إنما هو حتى تسلموا وتستأذنوا" (١٢٠).

ويذكر الشيخ أبو زهرة عند هذه الآية جملة من الأسباب التي تدعو للاستئذان حيث قال: " إن الاستئناس والتسليم لثلاثة أسباب **أولها**: أن يكون صاحب البيت ليس على حال يسبح باللقاء واستقبال الناس، **وثانيها**: احترام الملكية، سواء أكانت ملكية عينية بأن يكون البيت ملكه، أو ملكية منفعة إذا كان مؤجرا، **وثالثها**: إزالة وحشة المفاجأة؛ لكي تُصان الأعراض، وتُستر العورات، وحيث كشفت الأستار كانت الفتن وكان ظن السوء، فتسود القطيعة، والتفاحش.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ فقوله تعالى: ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ معناها، أي هو أطهر لكم، وأكرم، وأنمى لمروءتكم، ثم قال

---

(١٢٠) تفسير الطبري١٩/ ١٤٩.

تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾، أي الله تعالى يعلم ما فيه خيركم وطهركم وأليق بكرمائكم، وما يبعد المنافرة بين جماعتكم، وأنتم لا تعلمون خيركم، ولا ما فيه طهارتكم وسموكم، ومعرفة الفاضل من أموركم، أي الله تعالى يعلم ما تعملون من خير وشر ولائق وغير لائق، عليم به"[١٢١].

مسألة أولى: من آداب الاستئذان

والاستئذان الذ ي تحصل به التزكية له جملة من الآداب حرص الإسلام على تجليتها للمسلم، وأمره بالتحلي بها كلما قادته قدماه إلى زيارة إنسان، ومن هذه الآداب ما يلي:

أولاً: ألاَّ يقف أمام الباب

بل يأخذ يمنة أو أيسرة، وهذا ما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعن عبد الله بن بسر، صاحب النبي صلى الله عليه وسلم: " أن النبي صلى الله عليه وسلم:" **إذا أتى بابا يريد أن يستأذن لم يستقبله، جاء يمينا أو شمالا، فإن أذن له، وإلا انصرف**" [١٢٢]؛ ذلك أن الاستئذان جعل من أجل البصر، كما في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: قال

([١٢١]) زهرة التفاسير، لأبي زهرة١٠/٥١٧٨، باختصار وتصرف.

([١٢٢]) صحيح الأدب المفرد، للألباني، برقم(١٠٧٨)، وقال عنه الألباني: حديث حسن.

رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إنما جعل الاستئذان من أجل البصر**" [١٢٣]. ومن هنا لا يجوز للمستأذن أن يقف في مواجهة الباب حيث ينصب البصر حين فتحه.

ثانياً: السلام والاستئذان

وبهذا جاء الهدي النبوي، ففي حديث ربعي بن حراش، قال: حدثنا رجل من بني عامر أنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم، وهو في بيت، فقال: أألج؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخادمه: "**أخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان فقل له قل: السلام عليكم، أأدخل؟** " فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم، فدخل [١٢٤].

ثالثاً: أن يُعرِّف بنفسه

بأن يسمي نفسه بما يعرف به من اسم أو كنية، إذا قيل له: من أنت؟ ولا يقول كلمة غامضة مثل: أنا، ونحوها؛ فقد كره النبي صلى الله عليه وسلم أن يجيب الطارق بكلمة أنا التي لا تفصح عن هوية صاحبها وشخصيته، وأُمر بذكر الاسم الصريح عند السؤال، فعن جابر رضي الله عنه قال: أتيت النبي

([١٢٣]) صحيح البخاري، برقم(٥٧٧٢).

([١٢٤]) سنن أبي داوود، برقم(٥١٧٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم(٢٧١٢).

صلى الله عليه وسلم، فدققت الباب، فقال: "**من هذا؟**، فقلت: أنا، فقال: "**أنا أنا؟!** " كأنه كرهها" [١٢٥].

لقد علَّمنا الرسول الكريم بذلك أن السنة في أدب الاستئذان ذكر الاسم الصريح، وهذا ما كان عليه هو وصحابته رضى الله عنهم أجمعين، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: خرجت ليلة من الليالي، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وحده، فجعلت أمشي في ظل القمر، فالتفت فرآني، فقال: "**من هذا؟** " فقلت: أبو ذر جعلني الله فداءك..." [١٢٦].

رابعا: أن يرجع إذا لم يُؤذن له

دون أن يجد في نفسه شيئا من غضاضة، وقد جاء في ذلك أمر الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾[النور: ٢٨]، قال قتادة: قال بعض المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها: أن أستأذن على بعض إخواني، فيقول لي: "ارجع"، فأرجع وأنا مغتبط لقوله تعالى:، ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ

([١٢٥]) رواه البخاري، برقم(٥٧٨١).

([١٢٦]) صحيح مسلم، برقم،(١٦٥٥).

بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾، وقال سعيد بن جبير: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْ ﴾ أي: لا تقفوا على أبواب الناس"[١٢٧].

والاستئذان على الناس يكون ثلاث، فإن أُذن للمستأذن دخل، وإلا رجع، فعن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري قال جاء أبو موسى إلى عمر بن الخطاب فقال: السلام عليكم هذا عبد الله بن قيس فلم يأذن له، فقال: السلام عليكم هذا أبو موسى، السلام عليكم هذا الأشعري ثم انصرف فقال ردوا علي ردوا علي فجاء فقال: يا أبا موسى ما ردك؟ كنا في شغل قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " **الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك وإلا فارجع**" قال: لتأتيني على هذا ببينة وإلا فعلت وفعلت فذهب أبو موسى، قال عمر: إن وجد بينة تجدوه عند المنبر عشية، وإن لم يجد بينة فلم تجدوه، فلما أن جاء بالعشي وجدوه قال يا أبا موسى ما تقول أقد وجدت؟ قال: نعم أبي بن كعب قال عدل، قال يا أبا الطفيل ما يقول هذا؟ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك يا ابن الخطاب فلا تكونن عذابا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال سبحان الله إنما سمعت شيئا فأحببت أن أتثبت" [١٢٨]، وفي رواية لمسلم أيضا أن عمر قال معاتبا نفسه حين ثبت له

([١٢٧]) تفسير ابن كثير ٧/٤١.

([١٢٨]) صحيح مسلم، برقم(٤٠١٠).

الحديث: خفي علي هذا من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ألهاني عنه الصفق بالأسواق" [١٢٩]، يعني الخروج إلى التجارة في الأسواق.

قال الإمام القرطبي: " إنما خص الاستئذان بثلاث؛ لأن الغالب من الكلام إذا كرر ثلاثا سمع وفهم؟، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى يفهم عنه، وإذا سلم على قوم سلم عليهم ثلاثا، وإذا كان الغالب هذا، فإذا لم يؤذن له بعد ثلاث ظهر أن رب المنزل لا يريد الإذن، أو لعله يمنعه من الجواب عنه عذر لا يمكنه قطعه، فينبغي للمستأذن أن ينصرف؛ لأن الزيادة على ذلك قد تقلق رب المنزل، وربما يضره الإلحاح حتى ينقطع عما كان مشغولا به" [١٣٠].

مسألة ثانية: حكم الاستئذان بين المحارم

العلاقة بين المحارم ينبغي أن يسودها جو من الصفاء والنقاء، وألا يُسمح ببذور والشك والريبة أن تنموا، فتفسد هذه العلاقة، ومما يساعد على زكاء هذه العلاقة وديمومتها وجود الاستئذان بين المحارم، وقد استدل من قال بوجوب الاستئذان بين المحارم بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور :٥٩] فلم يفرق بين من كان منهم أجنبيا أو ذا رحم

([١٢٩]) صحيح مسلم، برقم(٤٠٠٩).

([١٣٠]) تفسير القرطبي ١٢/ ٢١٥.

مُحرَّمْ، إلا أن أمر ذوي المحارم أيسر؛ لجواز النظر إلى شعرها وصدرها وساقها ونحوها من الأعضاء " [١٣١] .

قال ابن حجر في فتح الباري في شرحه لحديث:" إنما جعل الاستئذان من أجل البصر" [١٣٢]، ما نصه: "ويؤخذ منه أنه يشرع الاستئذان على كل أحد حتى المحارم، لئلا تكون منكشفة العورة: وقد أخرج البخاري في الأدب المفرد عن نافع:" كان ابن عمر إذا بلغ بعض ولده الحلم عزله فلم يدخل عليه إلا بإذن" [١٣٣]، وجاء رجل إلى ابن مسعود فقال: استأذن على أمي؟ فقال: ما على كل أحيانها تريد أن تراها" [١٣٤] ، ومن طريق مسلم بن نذير بالنون مصغرا: سأل رجل حذيفة: أستأذن على أمي؟ فقال: إن لم تستأذن عليها رأيت ما تكره" [١٣٥]" [١٣٦].

وذهب الإمام ابن كثير إلى استحباب أن يستأذن الرجل على زوجته، واستدل على ذلك بجملة من الأدلة، منها، عن جابر، رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا؛ ليلا

([١٣١]) أحكام القرآ ن، للجصاص٣/ ٤٠٥.

([١٣٢]) رواه البخاري في صحيحة برقم(٥٧٧٢).

([١٣٣]) صحيح الأدب المفرد، للألباني، برقم(١٠٥٩).

([١٣٤]) صحيح الأدب المفرد، للألباني، برقم(٤٣٤).

([١٣٥]) صحيح الأدب المفرد، للألباني، برقم(١٠٦٠).

([١٣٦]) فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، ١٧/ ٤٦٧.

يتخونهم" [١٣٧]، وعن جابر. أيضا. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة نهارا، فأناخ بظاهرها، وقال: "انتظروا حتى تدخل عشاء، يعني آخر النهار؛ حتى تمتشط الشعثة، وتستحد المغيبة" [١٣٨].

واستدل من قال بعدم الاستئذان على الأهل بقول ابن جريج قال: قلت لعطاء: أيستأذن الرجل على امرأته؟ قال: لا، ورد الإمام ابن كثير على أصحاب هذا لقول بقوله: وهذا محمول على عدم الوجوب، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به؛ لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها" [١٣٩].

ورجح العلامة الشنقيطي عدم وجوب الاستئذان بين الزوجين حيث قال:" اعلم أنه إن لم يكن مع الرجل في بيته إلا امرأته أن الأظهر أنه لا يستأذن عليها، وذلك يفهم من ظاهر قوله تعالى: ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾ ولأنه لا حشمة بين الرجل وامرأته، ويجوز بينهما من الأحوال والملابسات ما لا يجوز لأحد غيرهما، ولا سيما عند من يرى إباحة نظر إلى فرح امرأته كمالك وأصحابه ومن وافقهم" [١٤٠].

([١٣٧]) صحيح البخاري، برقم (٥٢٤٣)، وصحيح مسلم، برقم (٧١٥).

([١٣٨]) رواه البخاري في صحيحه، برقم (٥٢٤٧).

([١٣٩]) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٩، بتصرف واختصار.

([١٤٠]) أضواء البيان، للشنقيطي٥/ ٤٩٤، باختصار.

والذي يظهر من أقوال أهل التفسير أنه لا فرق في وجوب الاستئذان بين الرجال والنساء، والمحارم وغير المحارم لأن الحكم عام، ولو كان الزائر والدا أو ولدا أو أحد الزوجين، وذلك أبعد للريبة وأكمل في طهارة النفس وتزكيتها، وعلى هذا يكون الاستئذان على المحارم واجبا وتركه غير جائز، والعلم عند الله تعالى"[١٤١].

وبتطبيق هذه الآداب الإسلامية الرفيعة، يحفظ للمجتمع المسلم كيانه، وتصان لأفراده حرماتهم، وتزكوا الأنفس من غوائل التطلع إلى عورات الناس وأسرارهم، قال سيد قطب وهو يبين الفوائد المترتبة على الاستئذان وأثر ذلك في تزكية المجتمع وطهارته:" قد جعل الله البيوت سكنا، يفيء إليها الناس؛ فتسكن أرواحهم؛ وتطمئن نفوسهم؛ ويأمنون على عوراتهم وحرماتهم، ويلقون أعباء الحذر والحرص المرهقة للأعصاب، والبيوت لا تكون كذلك إلا حين تكون حرما آمنا لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنهم، وفي الوقت الذي يريدون، وعلى الحالة التي يحبون أن يلقوا عليها الناس؛ ذلك أن استباحة حرمة البيت من الداخلين دون استئذان، يجعل أعينهم تقع على عورات؛ وتلتقي بمفاتن تثير الشهوات؛ وتهيئ الفرصة للغواية، الناشئة من اللقاءات العابرة والنظرات الطائرة، التي قد تتكرر فتتحول إلى نظرات قاصدة، تحركها

([١٤١]) ينظر: تفسير الطبري٩/ ٢٩٩، وتفسير القرطبي١٢/٢٢٠، وتفسير ابن عطية٤/ ١٧٦، وتفسير الثعالبي٤/ ١٨١

الميول التي أيقظتها اللقاءات الأولى على غير قصد ولا انتظار؛ وتحولها إلى علاقات آثمة بعد بضع خطوات أو إلى شهوات محرومة تنشأ عنها العقد النفسية والانحرافات، من أجل هذا وذلك أدب الله المسلمين بهذا الأدب العالي، أدب الاستئذان على البيوت، والسلام على أهلها لإيناسهم، وإزالة الوحشة من نفوسهم، قبل الدخول، وذلك في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ ويعبر عن الاستئذان بالاستئناس وهو تعبير يوحي بلطف الاستئذان، ولطف الطريقة التي يجيء بها الطارق، فتحدث في نفوس أهل البيت أنسا به، واستعدادا لاستقباله، وهي لفتة دقيقة لطيفة، لرعاية أحوال النفوس، ولتقدير ظروف الناس في بيوتهم، وما يلابسها من ضرورات لا يجوز أن يشقى بها أهلها ويحرجوا أمام الطارقين في ليل أو نهار" (١٤٢).

(١٤٢) في ظلال القرآن ٢، لسيد قطب/٢٧٢ ، باختصار.

السبب الخامس: محاسبة النفس

ومن أسباب تزكية النفس محاسبتها، وقد دل على محاسبة النفس قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾[الحشر: ١٨] قال الإمام ابن كثير:" أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ تأكيد ثان، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ أي: اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير" (١٤٣).

وعن شداد بن أوس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " **الكَيِّسْ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله**" (١٤٤)، قال المباركفوري في شرحه لهذا الحديث" **الكَيِّسْ**" من أبصر العاقبة، وحاسب نفسه في الدنيا قبل أن يُحَاسب يوم القيامة، ويروى عن عمر بن الخطاب قال حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وتزينوا للعرض الأكبر وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا، "**وعمل لما بعد الموت**" قبل نزوله ليصير على نور من ربه فالموت عاقبة أمر الدنيا"

---

(١٤٣) تفسير ابن كثير ٨/ ٧٧.

(١٤٤) سنن الترمذي برقم(٢٣٨٣)، وقال عنه الترمذي هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

والعاجز" المقصر في الأمور "**من أتبع نفسه هواها**" أي جعلها تابعة لهواها، فلم يكفها عن الشهوات ولم يمنعها عن مقارنة المحرمات، ومعنى" **وتمنى على الله** " فهو مع تفريطه في طاعة ربه واتباع شهواته لا يَعْتَذر بل يتمنى على الله الأماني أن يعفو عنه، ويتمنى الجنة من غير الاستغفار والتوبة" (١٤٥).

ومحاسبة النفس من صفات المؤمنين الصادقين؛ ذلك أن النفس داعية إلى المهالك، معينة للأعداء، طامحة إلى كل قبيح، متبعة لكل سوء؛ فهى تجري بطبعها فى ميدان المخالفة، قال ابن القيم:" وجماع ذلك أن يحاسب نفسه أولا على الفرائض، فإن تذكر فيها نقصا تداركه، إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهي، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئا تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية، ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسبها بما تكلم به، أو مشت إليه رجلاه، أو بطشت يداه، أو سمعته أذناه: ماذا أرادت بهذا؟ ولم فعلته؟ وعلى أي وجه فعلته؟ ويعلم أنه لابد أن ينشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان لم فعلته؟ وكيف فعلته؟ فالأول سؤال عن

---

(١٤٥) تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي، للمباركفوري ٦/ ٢٥١، باختصار .

الإخلاص، والثاني سؤال عن المتابعة، وقال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢]،

قال قتادة: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ فيسأل عن المعبود وعن العبادة. وقال تعالى:﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨] والنعيم المسئول عنه نوعان: نوع أخذ من حله وصرف فى حقه، فيسأل عن شكره، ونوع أخذ بغير حله وصرف فى غير حقه، فيسأل عن مستخرجه ومصرفه، فإذا كان العبد مسئولا ومحاسبا على كل شيء، حتى على سمعه وبصره وقلبه، كما قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[الإسراء: ٣٦.] فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب.

ومحاسبة النفس على نوعين: نوع قبل العمل، ونوع بعده، فأما **النوع الأول المحاسبة قبل العمل:** فهو أن يقف عند أول همه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه، قال الحسن رحمه الله: رحم الله عبدا وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر، وشرح هذا بعضهم فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال وهَمَّ به العبد، وقف ونظر: هل الباعث عليه إرادة وجه الله عز وجل وثوابه أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟ فإن كان الثاني لم يقدم، وإن أفضى به إلى مطلوبه، لئلا تعتاد

النفس الشرك، وإن كان الأول وقف وقفة أخرى ونظر هل هو معان عليه، وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجا إلى ذلك أم لا؟ فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه، وإن وجده معانا عليه فليقدم عليه فإنه منصور.

النوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل، وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذى ينبغي، وحق الله تعالى فى الطاعة ستة أمور، وهى: الإخلاص فى العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه، وشهود منة الله عليه فيه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله، فيحاسب نفسه: هل وفى هذه المقامات حقها؟ وهل أتى بها فى هذه الطاعة؟ **الثاني:** أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرا له من فعله، **الثالث:** أن يحاسب نفسه على أمر مباح، أو معتاد: لم فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحا، أو أراد به الدنيا وعاجلها، وترك المحاسبة يؤول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرور: يغمض عينيه عن العواقب، ويمشى الحال، ويتكل على العفو، فيهمل محاسبة نفسه والنظر فى العاقبة. وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب، وأنس بها، وعسر عليها فطامها، ولو حضره رشده لعلم أن الحمية أسهل" [١٤٦].

([١٤٦]) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم ١/ ٨٣، باختصار، وتصرف.

ويؤكد ابن القيم رحمه الله على ضرورة محاسبة النفس والتفتيش عليها فيما تعمله من الطاعات حتى تزكو وتتطهر ولا تغتر بكثرة الحسنات والطاعات، قال رحمه الله:" من العابدين أناس توفرت هممهم على استكثارهم من الحسنات دون مطالعة عيب النفس والعمل والتفتيش على دسائسها ومحاسبة النفس عليها، ويحملهم على استكثارها رؤيتها والإعجاب بها، ولو تفرغوا لتفتيشها ومحاسبة النفس عليها والتمييز بين ما فيها من الحظ والحق لشغلهم ذلك عن استكثارها، ولأجل هذا كان عمل العابد القليل المراقبة لعمله خفيفا عليه فيستكثر منه ويصير بمنزلة العادة، فإذا أخذ نفسه بتخليصها من الشوائب وتنقيتها من الكدر وجد لعمله ثقلا كالجبال وقل في عينه، ولكن إذا وجد حلاوته سهل عليه حمل أثقاله والقيام بأعبائه والتلذذ والتنعم به مع ثقله.

وإذا أردت فهم هذا المعنى كما ينبغي فانظر وقت أخذك في القراءة إذا أعرضت عن واجبها وتدبرها وفهم ما أريد بكل آية وحظك من الخطاب بها، وتنزيلها على أدواء قلبك، كيف تدرك الختمة أو أكثرها بسهولة وخفة مستكثرا من القراءة، فإذا ألزمت نفسك التدبر ومعرفة المراد والنظر فيما يخصك منه والتعبد به، وتنزيل دوائه على أدواء قلبك والاستشفاء به زكت نفسك، فلم تكد تجوز السورة أو الآية إلى غيرها، وكذا لو جمعت قلبك على ركعتين فأعطيتهما ما تقدر عليه من الحضور والمراقبة لم تكد أن تصلي غيرهما إلا بجهد، فإذا خلا القلب من ذلك عددت الركعات بلا حساب.

فالاستكثار من الطاعات دون مراعاة آفاتها وعيوبها دليل على قلة الفقه، ولكن أحب العباد إلى الله الذين يستكثرون من الصالحات مع المحاسبة فيها، فقد ندب الله عباده إلى ذلك في قوله: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧]، فإذا كان استعظام الطاعة ذنب، فإن استقلال المعصية ذنب أيضا، فالعارف من بالله تعالى صاحب النفس الزاكية، من صغرت حسناته في عينه، وعظمت ذنوبه عنده، وكلما صغرت الحسنات في عينك كبرت عند الله، وكلما كبرت وعظمت عندك قلت وصغرت عند الله [١٤٧].

وقال ابن أبى الدنيا: "حدثني رجل من قريش، ذكر أنه من ولد طلحة بن عبيد الله قال: كان توبة بن الصمة بالرقة، وكان محاسبا لنفسه، فحسب يوما، فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها، فإذا هى أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ، وقال: يا ويلتى، ألقى ربي بأحد وعشرين ألف ذنب؟ كيف وفى كل يوم آلاف من الذنوب؟ ثم خرج مغشيا عليه، فإذا هو ميت، فسمعوا قائلا يقول: "يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى " [١٤٨].

([١٤٧]) مدارج السالكين، لابن القيم١/ ٢٥٧باختصار، وتصرف.

([١٤٨]) المحاسبة ، لابن أبي الدنيا صـ ١٠٦.

السبب السادس: مجاهدة النفس

مجاهدة النفس في ذات الله تعالى من أسباب تزكيتها وطهارتها؛ وذلك أن جهاد النفس أصعب بكثير من مجاهدة العدو الخارجي؛ لأنك قد تتغلب على نفسك مرة ومرات أخرى عديدة تتفلت عليك قال الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الْحَجِّ: ٧٨]، قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى :" عني بالجهاد جهاد الكفار، وقيل: هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به، والانتهاء عن كل ما نهى الله عنه؛ أي: جاهدوا أنفسكم في طاعة الله، وردوها عن الهوى، وجاهدوا الشيطان في رد وسوسته، والظلمة في رد ظلمهم، والكافرين في رد كفرهم"[١٤٩]

وقال سيد قطب:" الجهاد في سبيل الله يشمل جهاد الأعداء، وجهاد النفس، وجهاد الشر والفساد كلها سواء﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ فقد انتدبكم لهذه الأمانة الضخمة، واختاركم لها من بين عباده، وإن هذا الاختيار ليضخم التبعة، ولا يجعل هنالك مجالا للتخلي عنها أو الفرار! وإنه لإكرام من الله لهذه الأمة ينبغي أن يقابل منها بالشكر وحسن الأداء! وهو تكليف محفوف برحمة الله:﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾، وهذا الدين كله بتكاليفه

([١٤٩]) تفسير القرطبي ١٢/ ٩٩.

وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته، ملحوظ في تلبيته تلك الفطرة، وإطلاق هذه الطاقة، والاتجاه بها إلى البناء والاستعلاء، فلا تبقى حبيسة كالبخار المكتوم، ولا تنطلق انطلاق الحيوان الغشيم " [١٥٠].

وقريباً من معنى هذه الآية قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العَنْكَبوتِ: ٦٩]، قال أبو سليمان الداراني: "ليس الجهاد فى الآية قتال الكفار فقط، بل هو نصر الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين، وعظمه الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس فى طاعة الله، وهو الجهاد الأكبر، وقال عمر بن عبد العزيز: إنما قصر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا فى العمل بما علمنا، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علما لا تقوم به أبداننا، ثم ذكر أن الله يعينهم بالنصرة والتوفيق، ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ أي وإن الله ذا الرحمة لمع من أحسن من خلقه، فجاهد أهل الشرك مصدقا رسوله فيما جاء به من عند ربه بالمعونة والنصرة على من جاهد من أعدائه، وبالمغفرة والثواب فى العقبى" [١٥١].

([١٥٠]) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٥/ ٢١٩.

([١٥١]) تفسير المراغي ٢١/ ٢٣، باختصار وتصرف.

وعن فضالة بن عبيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " **المجاهد من جاهد نفسه لله، أو قال في الله عز وجل**" [١٥٢]، قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: "النفس جبل عظيم شاق في طريق السير إلى الله عز وجل، وكل سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل، فلا بد أن ينتهي إليه، ولكن منهم من هو شاق عليه، ومنهم من هو سهل عليه، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، وفي ذلك الجبل أودية وشعاب ولصوص يقطعون على السائرين، فإذا لم يكن معهم عُدَدْ الإيمان ومصابيح اليقين تنقد بزيت الإخبات، وإلا تعلقت بهم الموانع وتشبثت بهم تلك القواطع، وحالت بينهم وبين السير، فإن أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته، والشيطان على قمة ذلك الجبل يحذر الناس من صعوده وارتفاعه ويخوفهم منه، وكلما رقى السائر في ذلك الجبل اشتد به صياح القاطع وتحذيره وتخويفه، فإذا قطعه وبلغ قمته انقلبت تلك المخاوف كلهن أمنا، وحينئذ يسهل السير، وتزول عنه عوارض الطريق ومشقة عقباتها، ويرى طريقا واسعا آمنا يفضي به إلى المنازل والمناهل، فبين العبد وبين السعادة

([١٥٢]) مسند أحمد برقم(٢٣٩٩٧)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، وهو في السلسلة الصحيحة للألباني برقم(٥٤٩).

والفلاح قوة عزيمة وصبر ساعة وشجاعة نفس وثبات قلب والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم. [١٥٣] ".

فمن أراد الترقي في تزكيته لنفسه فليحرص على محاسبتها على كل أعمالها، وليحرص أن تكون جميع أعماله مما يبتغي بها وجه الله تعالى.

([١٥٣]) مدارج السالكين، لابن القيم ٢/١٠.

السبب السابع: مراقبة النفس

ومن أسباب تزكية النفس المراقبة الدائمة لها؛ وذلك بتذكيرها برقابة الله الدائمة عليها، وقد دل على ذلك قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] ويتبع هذه المراقبة الإنكار عليها وعدم تلبية رغباتها المحرمة؛ لأنها داعية للراحة والعصيان، قال العلامة ابن القيم رحمه الله :" ويعينه على هذه المراقبة معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غدا إذا صار الحساب إلى غيره، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غدا، ومما يعينه عليها أيضا معرفته أن ربح هذه التجارة سُكنى الفردوس والنظر إلى وجه الرب سبحانه، وخسارتها دخول النار والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم، فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر ألا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فكل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لاحظ لها يمكن أن يشتري بها كنزا من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآبدين، فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه خسرانا عظيما لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلا، وإنما يظهر له حقيقة هذا

الخسران يوم التغابن ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ ﴾ [آل عمران: ٣٠] (١٥٤).

وقال الإمام الغزالي رحمه الله: "اعلم أن أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء مبالغة في الشر فرارة من الخير، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك إن لازمت نفسك بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها، ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولا بوعظ نفسك، وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها، وغباوتها وأنها أبدا تتعزز بفطنتها وهدايتها ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق فتقول: لها يا نفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار، وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب،

---

(١٥٤) إغاثة اللهفان ، لابن القيم صـ ٨٠ ، باختصار.

فما لك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم [١٥٥] .

فمراقبة الإنسان نفسه سبب من أسباب تزكيتها وطهارتها، فليحرص المسلم على ذلك؛ حتى تَتَزكَّى نفسه، ويصلح حاله في دنياه وأخراه.

([١٥٥]) إحياء علوم الدين ، للغزالي ٤/٤١٦، باختصار .

المطلب الثاني

أسباب ينبغي التخلي عنها لتزكوا الأنفس،

ويشتمل هذا لمطلب على أربعة أسباب:

السبب الأول: غض البصر

السبب الثاني: حفظ الفرج

السبب الثالث: ترك عضل النساء

السبب الرابع: ترك أكل الحرام

السبب الأول: غض البصر

نحن في عصر تعددت فيها الوسائل التي تعمل على فتنة المسلم عن دينه وعقيدته، وأخطر هذه الوسائل هي الوسائل الإعلامية المتعددة والمتنوعة التي انتشرت كثيرا في هذ العصر، وهذه الوسائل تعتمد المتابعة لها على حاسة البصر، وهذه الوسائل ـ في الغالب الأعم ـ تدعوا للفتنة وتروج للمنكرات، وهو ما يحتم على كل مسلم حريص على تزكية نفسه وتقوية إيمانه، أن يتعامل مع تلك الوسائل بحذر شديد، وأن يأخذ خيرها ويتجنب غثاءها وشرها، ولن يتأتى له ذلك إلا بالاستعانة بالله تعالى، والمرابطة على ثغر البصر؛ بأن يغضه عن كل فتنة تلوح له هنا أوهناك؛ حتى يحصل المسلم على زكاة نفسه وحسن صلته بربه، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن غض البصر عن الحرام وسيلة من وسائل تزكية النفس، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور:٣٠] وسف ينتظم الحديث عن هذا السبب في أربعة مسائل:

المسألة الأولى: أمر الله بغض البصر عن الحرام

والمتأمل في كتاب الله تعالى يجد أن الله تعالى ذكر هذا السبب من أسباب التزكية في سورة النور، بعد أن ذكر حكم الاستئذان على البيوت، وهذ

الترتيب لما بينهما من مناسبة:" فبعد أن نهى الله سبحانه وتعالى عن دخول البيوت إلا بعد الاستئذان والسلام على أهلها؛ منعا للقيل والقال والاطلاع على عورات الناس وأسرارهم، وأمر رسوله أن يرشد المؤمنين إلى غض البصر عن المحارم لمثل السبب المتقدم، إذ ربما كان ذلك ذريعة إلى وقوع المفاسد وانتهاك الحرمات التي نهى الدين عنها" (١٥٦).

قال أهل التفسير في تفسيرهم قوله تعالى:﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾"البصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه،

وفي قوله تعالى:﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا ﴾ أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرَّم الله عليهم، فلا ينظروا إلاَّ إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن الحرام، وفي قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ... ﴾[النور: ٣١]، خصَّ الله سبحانه وتعالى الإناث هنا بالخطاب على طريق التأكيد، وإلاَّ فإن قوله تعالى:﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ يكفي؛ لأنه قول عام يتناول الذكر والأنثى من المؤمنين، حسب كل خطاب عام في القرآن،

---

(١٥٦) تفسير المراغي١٨/ ٩٧.

فأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين والمؤمنات بغض الأبصار عما لا يحل، فلا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة ولا المرأة إلى الرجل، فإن علاقتها به كعلاقته بها، وقصدها منه كقصده منها.

و﴿ مِنۡ ﴾ في قوله تعالى:﴿ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾ للتبعيض؛ لأن النظرة الأولى لا تُمْلَك فلا تدخل تحت خطاب تكليف، إذ وقوعها لا يتأتى أن يكون مقصودا، فلا تكون مكتسبة فلا يكون مكلفا بها، فوجب التبعيض لذلك، ولم يقل ذلك في الفرج؛ لأنها تملك، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد، فليصرف بصره عنه سريعا، فعن جرير بن عبد الله البجلي، رضي الله عنه، قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم، عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري" [١٥٧]. وفي رواية: قال: "**أطرق بصرك**" [١٥٨]، يعني: انظر إلى الأرض، والصرف أعم؛ فإنه قد يكون إلى الأرض، وإلى جهة أخرى" [١٥٩].

والله سبحانه وتعالى قد أمر عباده في كتابه الكريم بغض البصر، قال ابن تيمية والبصر المطلوب غضه على نوعين **النوع الأول**: غض البصر عن العورة، وغضه عن محل الشهوة، كغض الرجل بصره عن عورة غيره، كما

([١٥٧]) صحيح مسلم، برقم(٤٠١٨).

([١٥٨]) صحيح أبي داوود، للألباني، برقم(١٨٦٤).

([١٥٩]) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي١٢/ ٢٢٣، وينظر: تفسير ابن كثير٦/ ٤١، تفسير الشعراوي صـ ٦٣١٨.

قال النبي صلى الله عليه وسلم " **لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة** " [١٦٠]، ويجب على الإنسان أن يستر عورته، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاوية بن حيدة:"**احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك**" قلت: فإذا كان أحدنا مع قومه قال:" **إن استطعت أن لا تريها أحدا فلا يرينها**، قلت: فإذا كان أحدنا خاليا؟ قال:" **فالله أحق أن يستحيا منه من الناس**" [١٦١]، ويجوز كشفها بقدر الحاجة كما تكشف عند التخلي وكذلك إذا اغتسل الرجل وحده. **النوع الثاني:** النظر إلى الزينة الباطنة من المرأة الأجنبية، فهذا أشد من الأول، وكذلك النظر إلى الأمرد بشهوة هو من هذا الباب، وقد اتفق العلماء على تحريم ذلك كما اتفقوا على تحريم النظر إلى الأجنبية وذوات المحارم بشهوة،" [١٦٢].

وغض البصر من جانب الرجال والنساء أدب عالي؛ لأن فيه محاولة لإغلاق البصر عن النظر للحرام الذي هو النافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية، قال سيد قطب :"ولقد شاع في وقت من الأوقات أن النظرة المباحة، والحديث الطليق، والاختلاط الميسور، والدعابة المرحة بين الجنسين والاطلاع على مواضع الفتنة المخبوءة، شاع أن كل هذا تنفيس وترويح،

([١٦٠]) صحيح مسلم، برقم(٥١٢).

([١٦١]) صحيح ابن ماجه، للألباني، برقم(١٥٥٩).

([١٦٢]) مجموع الفتاوي، لابن تيمية٣/ ٣٨١، باختصار.

وإطلاق للرغبات الحبيسة، ووقاية من الكبت، ومن العقد النفسية، وتخفيف من حدة الضغط الجنسي، وما وراءه من اندفاع غير مأمون.

شاع هذا على إثر انتشار بعض النظريات المادية القائمة على تجريد الإنسان من خصائصه التي تفرقه من الحيوان، والرجوع به إلى القاعدة الحيوانية الغارقة في الطين! وبخاصة نظرية فرويد، ولكن هذا لم يكن سوى فروض نظرية، وقد رأيت بعيني في أشد البلاد إباحية وتفلتا من جميع القيود الاجتماعية الأخلاقية والدينية والإنسانية، ما يكذبها وينقضها من الأساس، وشاهدت الأمراض النفسية والعقد التي كان مفهوما أنها لا تنشأ إلا من الحرمان، وإلا من التلهف على الجنس الآخر، شاهدتها بوفرة ومعها الشذوذ الجنسي بكل أنواعه، ثمرة مباشرة للاختلاط الكامل الذي لا يقيده قيد ولا يقف عند حد؛ وللصداقات بين الجنسين تلك التي يباح معها كل شيء! وللأجسام العارية في الطريق، وللحركات المثيرة والنظرات الجاهرة، واللفتات الموقظة، مما يدل بوضوح على ضرورة إعادة النظر في تلك النظريات التي كذبها الواقع المشهود، ﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ﴾، فهو أطهر لمشاعرهم؛ وأضمن لعدم تلوثها بالانفعالات الشهوية في غير موضعها المشروع النظيف، وعدم ارتكاسها إلى الدرك الحيواني الهابط، هو أطهر للجماعة وأصون لحرماتها وأعراضها، وجوها الذي تتنفس فيه، والله هو الذي يأخذهم بهذه الوقاية؛ وهو العليم

بتركيبهم النفسي وتكوينهم الفطري، الخبير بحركات نفوسهم وحركات جوارحهم"[١٦٣].

ومما ينبغي التنبيه له أن النظر قد يكون في أصله مباحا كالنظر إلى المحارم بشهوة، لكن عند خوف الفتنة يُحْرم، قال الإمام ابن تيمية:" النظر إلى المحارم يحرم

وكذلك نظر محارم المرأة إليها: مثل ابن زوجها وابنه وابن أخيها وابن أختها متى كان يخاف عليه الفتنة بالنظر أو عليها توجه الاحتجاب بل وجب، وهذه المواضع التي أمر الله تعالى بالاحتجاب فيها مظنة الفتنة؛ ولهذا قال تعالى:﴿ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ ﴾ [النور:٣٠] وإذا كان النظر والبروز قد انتفى فيه الزكاة والطهارة لما يوجد في ذلك من شهوة القلب واللذة بالنظر، كان ترك النظر والاحتجاب أولى بالوجوب"[١٦٤].

وقال الإمام النووي:" وأما المحارم فالصحيح أنه يباح نظر بعضهم إلى بعض لما فوق السرة وتحت الركبة، وجميع من ذكرنا من التحريم حيث لا حاجة، ومن الجواز حيث لا شهوة" [١٦٥].

([١٦٣]) في ظلال القرآن، لسيد قطب٥/٢٧٥.

([١٦٤]) مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية ٣/ ٣٧٣باختصار.

([١٦٥]) شرح صحيح مسلم ، للنووي١٥/ ٥٦.

المسألة الثانية: عقوبات النظر إلى الحرام

مما يعين الإنسان على الإقلاع عن النظر إلى الحرام أن يعلم العقوبات المترتبة عن نظره إلى الحرام، وهذه العقوبات تحول بينه وبين تزكيته لنفسه، ومن هذه العقوبات ما يلي:

أولا: النظر الحرام قد يقود صاحبه إلى الزنا

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" كُتِبَ على ابن آدم نصيبه من الزنا، مدرك ذلك لا محالة؛ فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطى، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج ويكذبه"[١٦٦] قال الإمام النووي:" معنى الحديث أن ابن آدم قُدِّر عليه نصيب من الزنا، فمنهم من يكون زناه حقيقيا بإدخال الفرج في الفرج الحرام، ومنهم من يكون زناه مجازا بالنظر الحرام أو الاستماع إلى الزنا وما يتعلق بتحصيله، أو بالمس باليد بأن يمس أجنبية بيده، أو يقبلها، أو بالمشي بالرجل إلى الزنا، أو النظر، أو اللمس، أو الحديث الحرام مع أجنبية، ونحو ذلك، أو بالفكر بالقلب، فكل هذه أنواع من الزنا المجازي، والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه، معناه أنه قد يحقق الزنا بالفرج، وقد لا يحققه بألا يولج الفرج في الفرج، وإن

([١٦٦]) صحيح مسلم، برقم (٢٦٥٧).

قارب ذلك" [١٦٧] ، وقال الغزالي:" ونبه بهذا الحديث على أنه لا يصل إلى حفظ الفرج إلا بحفظ العين عن النظر، وحفظ القلب عن الفكرة، وحفظ البطن عن الشبهة، وعن الشبع، فإن هذه محركات للشهوة ومغارسها، وزنا العين من كبار الصغائر وهو يؤدي إلى الكبيرة الفاحشة وهي زنا الفرج، ومن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ دينه" [١٦٨]

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" **إياكم والجلوس في الطرقات**، قالوا: يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه**" قالوا وما حقه؟ قال: **غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**" [١٦٩] ، قال الإمام العيني:" قوله "**وكف الأذى**" من نحو التضيق على المارين، واحتقارهم به وعيبهم له، وامتناع النساء من الخروج إلى أشغالهن بسبب قعودهم في الطريق والاطلاع على أحوال الناس مما يكرهونه" [١٧٠].

ثانيا: تعلق القلب بالصور

([١٦٧]) شرح صحيح مسلم، للنووي٧/٩.

([١٦٨]) فيض القدير، للمناوي١٠/ ١٧٨.

([١٦٩]) صحيح البخاري، برقم (٢٢٨٥)

([١٧٠]) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، للإمام العيني ٣٢/ ٤٥٤.

فمن أطلق لبصره النظر إلى الحرام دامت حسراته، والنظر إلى الحرام يولد المحبة للمنظور إليه قال ابن القيم:" فتبدأ علاقة يتعلق بها القلب بالمنظور إليه، ثم تقوى فتصير صبابة ينصب إليه القلب بكليته، ثم تقوى فتصير غراما يلزم القلب كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه، ثم يقوى فيصير عشقا وهو الحب المفرط، ثم يقوى فيصير شغفا، وهو الحب الذي قد وصل إلى شغاف القلب وداخله، ثم يقوى فيصير تتيما، والتتيم التعبد ومنه تيمه الحب إذا عبده، وهذا كله جناية النظر، فحينئذ يقع القلب في الأسر فيصير أسيرا بعد أن كان ملكا، ومسجونا بعد أن كان مطلقا، وهذا إنما تُبْتَلي به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له فإن القلب لابد له من التعلق بمحبوب، فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده فلابد أن يتعبد قلبه لغيره، قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾[يوسف: ٢٤] فامرأة العزيز لما كانت مشركة وقعت فيما وقعت فيه مع كونها ذات زوج ويوسف عليه السلام لما كان مخلصا لله تعالى نجا من ذلك مع كونه شابا عزبا غريبا مملوكا" [١٧١].

ثالثا: النظر إلى بيوت الناس بغير إذنهم يبيح فقأ عين الناظر

([١٧١]) إغاثة اللهفان، لابن القيم صـ ٤٧.

عن سهل بن سعد الساعدي أخبره أن رجلا اطلع في جحر في باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم مدرى [١٧٢] يحك به رأسه فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" **لو أعلم أنك تنتظرني لطعنت به في عينيك**، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **إنما جعل الإذن من قبل البصر**" [١٧٣]

قال ابن تيمية: قوله صلى الله عليه وسلم:" **لو أعلم أنك تنظرني لطعنت به فى عينك**" جعل نفس النظر مبيحا للطعن فى العين، ولم يذكر الأمر له بالانصراف، وهذا يدل على أنه من باب المعاقبة له على ذلك، حيث جنى هذه الجناية على حرمة صاحب البيت، فله أن يفقأ عينه بالحصى والمدرى، والنظر إلى العورات حرام داخل في الفواحش، لأن الفاحشة تتناول كشف العورة وإن لم يكن في ذلك مباشرة كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[الأعراف: ٢٨] وهذه الفاحشة هي طوافهم بالبيت عراة وكانوا يقولون لا نطوف بثياب عصينا الله فيها، وقد سمى الله ذلك فاحشة

([١٧٢]) المدرى والمدراة : شيء يعمل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط وأطول منه يسرَّح به الشعر ويستعمله من لا مشط له، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ٢/ ٢٦٠.

([١٧٣]) صحيح البخاري، برقم(٦٣٩٢).

وإبداء فعل النكاح باللفظ الصريح يسمى فحشاء وتفحشا، وكشف الأعضاء والفعل للبصر ككشف ذلك للسمع، وكل واحد من الكشفين يسمى وصفا كما قال عليه السلام " **لا تنعت المرأة المرأة لزوجها حتى كأنه ينظر إليها** "[١٧٤]، والمقصود أن الفاحشة تتناول الفعل القبيح وتتناول إظهار الأعضاء "[١٧٥].

المسالة الثالثة: علاج النظر المحرم

لخطورة النظر على تزكية النفس وطهارتها، فقد شرع الإسلام جملة من الأمور إذا لتزم بها الإنسان كان في ذلك علاجاً لمن يطلق بصره في الحرام، ومن هذه الأمور ما يلي:

أولا: أن يعلم خطورة العين

وذلك أن هذه العين قد تدخل الإنسان الجنة، وربما تدخله النار، فتدخله الجنة إن بكت من خشية الله أو باتت تحرس في سبيل الله، وقد تدخله النار إذا نظرت إلى الحرام وقادته إلى فعل المحرمات، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "**عينان لا تمسهما**

([١٧٤]) صحيح البخاري، برقم(٤٨٣٩)، ولفظه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم:" **لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها**".

([١٧٥]) مجموع الفتاوى، لابن تيمية ٣/ ٣٧٣، باختصار.

النار، عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل" [١٧٦]، وعن عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**اضمنوا لي ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة اصدقوا إذا حدثتم وأوفوا إذا وعدتم وأدوا إذا ائتمنتم واحفظوا فروجكم وغضوا أبصاركم وكفوا أيديكم** "[١٧٧].

ثانيا: مراقبة الله تعالى

واستحضار اطلاعه وعلمه الذي وسع كل شئ ومعيته لعبده: قال تعالى،﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]، قال ابن عباس، رضي الله عنهما، هو الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها، وإذا غفلوا لحظ إليها، وإذا نظروا غض بصره عنها، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أنه ينظر إلى عورتها" [١٧٨] .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانت امرأة تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناء من أحسن الناس، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف

([١٧٦]) رواه الترمذي، برقم(١٦٣٩)، وقال عنه: حديث حسن غريب، وصححه الألباني في المشكاة برقم (٣٨٢٩).

([١٧٧]) رواه أحمد في مسنده برقم(٢٢٨٠٩)،وقال شعيب الأرناؤوط: حسن لغيره، وهذا إسناد رجاله ثقات .

([١٧٨]) تفسير ابن أبي حاتم ،١٢/١٧٩.

المؤخر فإذا ركع نظر من تحت إبطيه فأنزل الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴾ [الحجر: ٢٤] (١٧٩).

وقد كان الصالحون في هذه الأمة شديدي المراقبة لله تعالى في أمور بصرهم ومنعه من النظر إلى الحرام، قال بن الجوزي:" كانت امرأة جميلة بمكة، وكان لها زوج، فنظرت يوما إلى وجهها في المرآة، فقالت لزوجها: أترى أحدا يرى هذا الوجه لا يفتن به؟ قال: نعم قالت: من؟ قال: عبيد بن عمير، قالت: فأذن لي فيه فلأفتننه قال: قد أذنت لك، قال: فأتته كالمستفتية، فخلا معها في ناحية المسجد الحرام، فأسفرت عن مثل فلقة القمر، فقال لها: يا أمة الله! قالت: إني قد فتنت بك فانظر في أمري، قال: إني سائلك عن شيء فإن أنت صدقتيني نظرت في أمرك، قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك قال: أخبريني لو أن ملك الموت أتاك لقبض روحك، أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا. قال: صَدَقْتِ.

قال: فلو أدخلت في قبرك وأجلست للمساءلة، أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا قال: صدقت، قال: فلو أن الناس أعطوا كتبهم ولا تدرين تأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك، أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا. قال: صدقت، قال: فلو جيء بالموازين وجيء بك لا تدرين تخفين أم تثقلين أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت:

---

(١٧٩) السلسلة الصحيحة، للألباني، برقم(٢٤٧٢).

اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو وقفت بين يدي الله للمساءلة أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت. قال: اتقي الله يا أمة الله، فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك، قال: فرجعت إلى زوجها فقال: ما صنعت؟ قالت: أنت بطال ونحن بطالون، فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة، قال: فكان زوجها يقول: ما لي ولعبيد بي عمير، أفسد علي امرأتي، كانت كل ليلة عروسا فصيرها راهبة" (١٨٠).

قال ابن رجب: "سئل الجنيد بم يستعان على غض البصر؟ قال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق إلى ما تنظره، وكان وهب بن الورد يقول: خف الله على قدر قدرته عليك واستحي منه على قدر قربه منك وقال له رجل: عظني فقال له اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك، وكتب ابن السماك الواعظ إلى أخ له: أما بعد أوصيك بتقوى الله الذي هو نجيك في سريرتك ورقيبك في علانيتك فاجعل الله من بالك على كل حال في ليلك ونهارك وخف الله بقدر قربه منك وقدرته عليك واعلم أنك بعينه ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره، ولا من ملكه إلى ملك غيره، فليعظم منه حذرك وليكثر منه وجلك والسلام، ودخل بعضهم حديقة ذات شجر فقال لو خلوت ههنا بمعصية من كان يراني فسمع هاتفا بصوت ملأ الغيضة يقول: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤] راود بعضهم أعرابية وقال: لها ما يرانا إلا الكواكب

---

(١٨٠) ذم الهوى، لابن الجوزي صـ ٢٦٥.

قالت: أين مكوكبها؟ ، رأى محمد بن المنكدر رجلا واقفا مع امرأة يكلمها فقال: إن الله يراكما سترنا الله وإياكما، وقال الحارث المحاسبي: المراقبة علم القلب بقرب الرب[١٨١] .

ثالثا: إعفاف النفس بالحلال

عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما في نفسه**" [١٨٢]، قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث: قوله صلى الله عليه وسلم:" **إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان**" قال العلماء: معناه: الإشارة إلى الهوى والدعاء إلى الفتنة بها، لما جعله الله تعالى في نفوس الرجال من الميل إلى النساء، والالتذاذ بنظرهن، وما يتعلق بهن، فهي شبيهة بالشيطان في دعائه إلى الشر بوسوسته وتزيينه له، ويُستنبط من هذا أنه ينبغي لها ألا تخرج بين الرجال إلا لضرورة، وأنه ينبغي للرجل الغض عن ثيابها، والإعراض عنها مطلقا، وفيه أنه لا بأس بطلب الرجل امرأته إلى الوقاع في النهار وغيره، وإن كانت مشتغلة بما يمكن

---

(١٨١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب صـ ١٦٢.

(١٨٢) رواه مسلم، برقم(٢٤٩١).

تركه؛ لأنه ربما غلبت على الرجل شهوة يتضرر بالتأخير في بدنه أو في قلبه وبصره" (١٨٣).

ومن اللطائف ما ذكره بعض العلماء في معنى قوله صلى الله عليه وسلم:" **من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة**" (١٨٤) ، قال ابن حجر: وقيل فيه إشارة إلى الجماع يوم الجمعة؛ ليغتسل فيه من الجنابة والحكمة فيه أن تسكن نفسه في الرواح إلى الصلاة ولا تمتد عينه إلى شيء يراه، وفيه حمل المرأة أيضا على الاغتسال ذلك اليوم" (١٨٥).

رابعا: الابتعاد عن مواطن الفتنة

ومن ذلك أن تصف المرأة امرأة أخرى لزوجها، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:" **لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها**" (١٨٦)، قال الإمام ابن حجر:" قال القابسي هذا أصل للإمام لمالك في سد الذرائع، فإن الحكمة في هذا النهي خشية أن يعجب الزوج الوصف المذكور فيفضي ذلك إلى تطليق الواصفة أو الافتتان بالموصوفة" (١٨٧).

---

(١٨٣) شرح صحيح مسلم، للنووي ٥/ ٧٥ باختصار.

(١٨٤) صحيح البخاري، برقم(٨٣٢).

(١٨٥) فتح الباري، لابن حجر العسقلاني٣/ ٢٨٥.

(١٨٦) رواه البخاري، برقم(٤٨٣٩).

(١٨٧) فتح الباري، لابن حجر العسقلاني١٥/٥٦.

ومن هذ الباب تحريم الإسلام النظر إلى العورات، سواء عورات الرجال بعضهم إلى بعض أو النساء، ومنه كذلك النهي عن أن ينام الرجلُ مع الرجل في لحاف واحد، بدون حائل، ومثله النساء، فعن أبي سعيد الخدري عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" **لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد**" [١٨٨] قال الإمام النووي عن هذ الحديث:" فيه تحريم نظر الرجل إلى عورة الرجل، والمرأة إلى عورة المرأة، وهذا لا خلاف فيه، وكذلك نظر الرجل إلى عورة المرأة والمرأة إلى عورة الرجل حرام بالإجماع، ونبه صلى الله عليه وسلم بنظر الرجل إلى عورة الرجل على نظره إلى عورة المرأة وذلك بالتحريم أولى.

وهذا التحريم في حق غير الأزواج، وأما نظر الرجل إلى المرأة فحرام في كل شيء من بدنها فكذلك يحرم عليها النظر إلى كل شيء من بدنه سواء كان نظره ونظرها بشهوة أم بغيره، هذا الذي ذكرناه في جميع هذه المسائل من تحريم النظر هو فيما إذا لم تكن حاجة، أما إذا كانت حاجة شرعية فيجوز النظر في حالة البيع والشراء والتطبب والشهادة ونحو ذلك، لكن يحرم النظر في هذه الحال بشهوة فإن الحاجة تبيح النظر للحاجة إليه، وأما الشهوة فلا حاجة إليها، النظر بالشهوة حرام على كل أحد غير الزوج والسيد، حتى

([١٨٨]) صحيح مسلم، برقم(٥١٢).

يحرم على الإنسان النظر إلى أمه وبنته بالشهوة، وأما قوله صلى الله عليه وسلم:" **ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد**"، فهو نهي تحريم، إذا لم يكن بينهما حائل، وفيه دليل على تحريم لمس عورة غيره بأي موضع من بدنه كان، وهذا متفق عليه، والله أعلم" [١٨٩]

رابعا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من أعطاه الله تعالى سلطاناً واستطاع أن يأخذ على أيدي الناس وبأن يحول بينهم وبين إطلاق أبصارهم في الحرام وجب عليه ذلك، فعن عبد الله بن عباس أنه قال: كان الفضل بن عباس رضي الله عنه رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر قالت: يا رسول الله ان فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخا كبيرا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة أفأحج عنه قال: نعم" [١٩٠] وذلك في حجة الوداع، قالا لإمام ابن حجر في شرحه لهذا الحديث قوله:" **فجعل الفضل ينظر إليها**" في رواية شعيب " وكان الفضل رجلا وضيئا، أي جميلا، وأقبلت امرأة من خثعم، وضيئة فطفق الفضل ينظر إليها

([١٨٩]) شرح صحيح مسلم، للنووي ٢/٥٠.

([١٩٠]) صحيح البخاري، برقم (١٧٢١) .

وأعجبه حسنها". قوله:" يصرف وجه الفضل" في رواية شعيب " فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم والفضل ينظر إليها، فأخلف بيده فأخذ بذقن الفضل فدفع وجهه عن النظر إليها" وهذا هو المراد بقوله في حديث علي" فلوى عنق الفضل " ووقع في رواية الطبري في حديث على" وكان الفضل غلاما جميلا، فإذا جاءت الجارية من هذا الشق صرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه الفضل إلى الشق الآخر، فإذا جاءت إلى الشق الآخر صرف وجهه عنها، وقال في آخره، رأيت غلاما حدثا وجارية حدثة فخشيت أن يدخل بينهما الشيطان" (١٩١).

خامسا: الحرص على الأعمال الصالحة

هناك أعمال صالحة شرعها الله تعالى لتطهير الناس من صغائر الذنوب والمعاصي، ومن ذلك معاصي إطلاق النظر في الحرام، ومن ذلك الوضوء، فقد جاء في فضل الوضوء أنه يكفر خطايا العين التي نظرت بها إلى الحرام: فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"**إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ،فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل**

---

(١٩١) فتح الباري، لابن حجر العسقلاني٦/ ٧٩.

رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقيا من الذنوب" [١٩٢]، والنظر المحرم الذي هو متعلق بتكفير الخطايا في الحديث هو ما كان من باب الصغائر، أما من أدمن النظر وأصر عليه فقد أتى كبيرة من كبائر الذنوب إذ لا صغيرة مع الإصرار، وعلى هذا فلا يكفر إلا التوبة لقوله تعالى:﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾[النساء: ٣١]، وقد أشار إلى ذلك الإمام النووي بقوله:" والمراد بالخطايا: الصغائر دون الكبائر، وقد جاء في حديث آخر:" **ما لم تغش الكبائر**" قال القاضي: والمراد بخروجها مع الماء المجاز والاستعارة في غفرانها؛ لأنها ليست بأجسام فتخرج حقيقة، والله أعلم" [١٩٣]

المسألة الرابعة: فوائد غض البصر

ذكر العلامة ابن القيم فوائد متعددة لغض البصر، نذكر بعضاً منها على النحو التالي:

الفائدة الأولى: تخليص القلب من ألم الحسرة

فإن من أطلق نظره دامت حسرته، فأضر شيء على القلب إرسال البصر، فإنه يريه ما يشتد طلبه ولا صبر له عنه ولا وصول له إليه؛ وذلك

([١٩٢]) رواه مسلم، برقم(٣٦٠).

([١٩٣]) شرح صحيح مسلم ، للنووي١/ ٣٩٧.

غاية ألمه وعذابه، والنظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرمية فإن لم تقتله جرحته، وهي بمنزلة الشرارة من النار ترمى في الحشيش اليابس فإن لم يحرقه كله أحرقت بعضه، كما قيل:

كل الحوادث مبداها من النظر... ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها... فتك السهام بلا قوس ولا وتر

والمرء ما دام ذا عين يقلبها... في أعين الغيد موقوف على الخطر

يسر مقلته ما ضر مهجته... لا مرحبا بسرور عاد بالضرر [١٩٤]

الفائدة الثانية: أنه يورث القلب نورا وإشراقا

وهذا النور يظهر في العين وفي الوجه وفي الجوارح، كما أن إطلاق البصر يورثه ظلمة تظهر في وجهه وجوارحه، ومما يمكن الاستئناس به في هذا الجانب ما ذكره الله سبحانه آية النور في قوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾[النور: ٣٥] عقيب قوله: ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ ﴾ [النور: ٣٠،]' وكأن في هذا إشارة أن من غض بصره عن الحرام أورثه الله تعالى نوراً يجد حلا وته في قلبه، وجاء الحديث مطابقا لهذا حتى كأنه مشتق منه، فعن حذيفة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" النظرة سهم

([١٩٤]) زاد المسلم والداعية من الشعر والبيان، لأمير بن محمد المدري ١/ ٤٩.

من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف الله أثابه جل وعز إيمانا يجد حلاوته في قلبه" [١٩٥].

([١٩٥]) رواه الحاكم في مستدركه برقم(٧٨٧٥)، وقال عنه: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الألباني قائلاً: وفيه علتان إحداهما: الاضطراب في إسناده، فمرة قال: عن ابن مسعود، ومرة: عن حذيفة. وأخرى: عن ابن عمر، انظر ضعيف الترغيب والترهيب، برقم (١١٩٥).

الفائدة الثالثة: صحة الفراسة

والله سبحانه وتعالى يجزى العبد على عمله بما هو من جنسه، فمن غض بصره عن المحارم عوضه الله سبحانه وتعالى إطلاق نور بصيرته، فإذا استنار القلب صحت الفراسة؛ لأنه يصير بمنزلة المرآة المجلوة تظهر فيها المعلومات كما هي، قال شجاع الكرماني:" من عمر ظاهره باتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة وغض بصره عن المحارم وكف نفسه عن الشهوات وأكل من الحلال لم تخطئ فراسته وكان شجاع لا تخطئ له فراسة، وفي المقابل من أطلق بصره في المحارم حبس الله عنه بصيرته، وتكدر عليه قلبه وأظلم وانسد عليه باب العلم وطرقه.

الفائدة الرابعة: قوة في القلب

بأن يجعل له سلطان البصير مع سلطان الحجة، وفي الأثر" إن الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله" ولهذا يوجد في المتبع لهواه من ذل القلب وضعفه ومهانة النفس وحقارتها ما جعله الله لمن آثر هواه على رضاه قال الحسن: إنهم وإن هملجت بهم البغال طقطقت بهم البراذين إن ذل المعصية لفي قلوبهم أبى الله إلا أن يذل من عصاه، وقال بعض الشيوخ: الناس يطلبون العز بأبواب الملوك ولا يجدونه إلا في طاعة الله، ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وفيه

قسط ونصيب من فعل من عاداه بمعاصيه وفي دعاء القنوت:" **إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت**" (١٩٦).

كما أنه يورث القلب سرورا وفرحة وانشراحا، أعظم من اللذة والسرور الحاصل بالنظر؛ وذلك لقهره عدوه بمخالفته ومخالفة نفسه وهواه؛ فإنه لما كفَّ لذته وحبس شهوته لله وفيها مسرة نفسه الأمارة بالسوء أعاضه الله سبحانه مسرة ولذة أكمل منها كما قال بعضهم: والله للذة العفة أعظم من لذة الذنب، ولا ريب أن النفس إذا خالفت هواها أعقبها ذلك فرحا وسرورا ولذة أكمل من لذة موافقة الهوى بما لا نسبة بينهما وهاهنا يمتاز العقل من الهوى.

الفائدة الخامسة: أنه يخلص القلب من سكر الشهوة

ورقدة الغفلة، فإن إطلاق البصر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة، ويوقع في سكرة العشق كما قال الله تعالى عن عشاق الصور ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحجر: ٧٢]، فالنظرة كأس من خمر والعشق هو سكر؛ ذلك الشراب وسكر العشق أعظم من سكر الخمر، فإن

---

(١٩٦) رواه أحمد برقم(١٧١٨)، ونص الحديث، عن الحسن بن على قال: علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن في قنوت الوتر: "اللهم أهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت وبارك لي فيما أعطيت وقني شر ما قضيت فإنك تقضى ولا يقضى عليك إنه لا يذل من واليت تباركت ربنا وتعاليت"، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله كلهم ثقات.

سكران الخمر يفيق وسكران العشق قلما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات كما قيل:

سكران سكر هوى وسكر مدامة... ومتى إفاقته من به سكران

وفوائد غض البصر وآفات إرساله أضعاف أضعاف ما ذكرنا، وإنما نبهتا عليه تنبيها ولا سيما النظر إلى من لم يجعل الله سبيلا إلى قضاء الوطر منه شرعا، كالمردان الحسان، فإن إطلاق النظر إليهم السم الناقع والداء العضال" (١٩٧).

هكذا نجد أن أدلة الكتاب والسنة تؤكد على أهمية غض المؤمنين لأبصارهم، إذا أرادوا تزكية لأنفسهم، وزيادة في إيمانهم؛ لهذا نجد أن الخطاب القرآني في بداية آية التزكية وُجِّه للمؤمنين؛ كونهم المعنين بتزكية أنفسهم، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[النور: ٣٠].

(١٩٧) روضة المحبين، لابن القيم صـ ١٠٥، باختصار وتصرف.

السبب الثاني: حفظ الفرج من الزنا

الإسلام دين العفة والنظافة، ودين الطهر والزكاء والنقاء، ومجانبة القذر والفحشاء؛ ولذا حرم الله تعالى الفواحش ما ظهر منها وما بطن، قال تعالى:﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وأكثر إطلاق الفواحش على العلاقات الجنسية المحرمة، كالزنا، واللواط وماجرى مجراهما من وسائل قضاء الشهوة بطرق غير مشروعة، والسبب في ذلك أنه" لا زكاة للنفس الإنسانية بدون حفظ الفرج من الفاحشة؛ وحفظه يتضمن حفظه عن الوطء به في الفروج والأدبار ودون ذلك، وعن المباشرة ومس الغير له وكشفه للغير ونظر الغير إليه فعليه أن يحفظ فرجه عن نظر الغير ومسه، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في حديث عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ فقال:" **احفظ عورتك إلا من زوجتك أوما ملكت يمينك** قال: فإذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال: **إن استطعت أن لا يرينها أحد فلا يرينها** قال: فإذا كان أحدنا خاليا؟

قال: "**فالله أحق أن يستحيا منه من الناس**" [١٩٨]، ونهى عن أن ينظر الرجل إلى عورة الرجل وأن تنظر المرأة إلى عورة المرأة [١٩٩]" [٢٠٠].

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن حفظ الفرج عن الحرام سبب من أسباب تزكية النفس، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور:٣٠]، فبعد أن ذكر الله تعالى أن عض البصر من أسباب تزكية النفس، ذكر بعده أن حفظ الفرج من أسباب تزكية النفس كذلك وسف ينتظم الحديث عن هذا السبب في ثمان مسائل على النحو التالي :

المسألة الأولى: الأمر بحفظ الفرج من الزنا

الزنا من أكبر الكبائر، ومن أفحشها وأشدها؛ لورود النهي الشديد عنه، والتحذير الأكيد منه، وإيصاد الطرق الموصلة إليه، وهو أعظم الذنوب بعد الشرك بالله والقتل، وقد توعد الله تعالى صاحبه بمضاعفة العذاب على فاعله إلا أن يتوب من جرمه؛ كما قال تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا

([١٩٨]) صحيح ابن ماجه، للألباني، برقم(١٥٥٩).

([١٩٩]) رواه مسلم برقم (٥١٢)، ونص الحديث عن بي سعيد الخدري عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" **لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد**" .

([٢٠٠]) مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية ٣/ ٣٧٣.

يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٨ – ٧٠] وفي حديث ابن مسعود أنه قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم؟ قال: "**الشرك بالله** قلت ثم أي؟ قال: "**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**" قلت ثم أي؟ قال:" **أن تزاني حليلة جارك**" [٢٠١]، وذلك لما يترتب على الزنا من المفاسد العاجلة والآجلة والعقوبات الخاصة والعامة.

وقد اجمعت الشرائع كلها على تحريمه، وإنزال العقوبة بالزناة والزواني، ولم يبح الزنا في أي شريعة لأي رسول من رسل الله تعالى؛ ولذا كان الأصل في الفروج الحفظ إلا ما أباحه الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥ – ٧] فجعل سبحانه حفظ الفروج هو الأصل، ولم يستثن إلا الزوجة وملك اليمين، وأخبر أن من تجاوزوا ذلك فهم معتدون.

([٢٠١]) صحيح البخاري، برقم(٤١١٧)، وصحيح مسلم، برقم(١٢٤).

وأمر بالعفاف من لا يقدر على مؤونة النكاح قال تعالى:﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النور: ٣٣] فمن عف عن الحرام خوفا من الله تعالى، أغناه الله تعالى ورزقه الحلال، فظفر بالأجر وبما أراد، ومن لم يستعفف، وصرف شهوته في الحرام، فهو حري بالفقر مع الوزر، وتذهب اللذة ويبقى إثم المعصية شؤما عليه يطارده إلى أن يتوب أو يموت.

المسألة الثنية: تحذير النبي صلى الله عليه وسلم أمته من الزنا

من نُصْحِ النبي عليه الصلاة والسلام لأمته أنه حذرهم من الزنا أشد التحذير، وأوصد جميع الطرق الموصلة إليه، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم أمته من الزنا في مقامين لافتين للأنظار نتناولهما على النحو التالي: \

أما المقام الأول: في خطبة الكسوف

فإنه ذكر النار والجنة والقبر، والفتن وبعض المعذبين، وخص الزنا في خطبته تلك بالذكر من بين سائر الذنوب؛ نهيا عنه، وتنفيرا منه، وتشديدا فيه، فعن أم المؤمنين عن عائشة رضي الله عنها قالت: خسفت الشمس في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس، ثم انصرف وقد انجلت الشمس فخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:" **إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك، فادعوا الله، وكبروا وصلوا وتصدقوا، ثم قال: يا أمة محمد، والله ما من أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا** " [٢٠٢] ، قال الإمام ابن حجر:" لما أمروا باستدفاع البلاء بالذكر والدعاء والصلاة والصدقة، ناسب ردعهم عن المعاصي التي هي من أسباب جلب البلاء،

([٢٠٢]) رواه البخاري برقم(٩٨٦)، ورواه مسلم برقم(١٤٩٩)، الحديث مختصرا.

وخص منها الزنا؛ لأنه أعظمها في ذلك، وقيل: لما كانت هذه المعصية من أقبح المعاصي وأشدها تأثيرا في إثارة النفوس وغلبة الغضب ناسب ذلك تخويفهم في هذا المقام من مؤاخذة رب الغيرة وخالقها سبحانه وتعالى" [٢٠٣]

المقام الثاني: في تعليقه على غيرة سعد

فعندما بلغه شدة غيرة سعد بن عبادة رضي الله عنه حين قال: "لو رأيت رجلا مع امرأتي، لضربته بالسيف غير مصفح عنه، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "**أتعجبون من غيرة سعد، فوالله لأنا أغير منه، والله أغير مني، من أجل غيرة الله حرم الفواحش، ما ظهر منها، وما بطن، ولا شخص أغير من الله ولا شخص أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشرين ومنذرين ولا شخص أحب إليه المدحة من الله من أجل ذلك وعد الله الجنة**" [٢٠٤]، قال الإمام النووي، معلقاً على هذا الحديث: " قال العلماء الغَيْرة بفتح الغين وأصلها المنع، والرجل غيور على أهله أي يمنعهم من التعلق بأجنبي بنظر أو حديث أو غيره، والغيرة صفة كمال فأخبر صلى الله عليه وسلم بأن سعدا غيور، وأنه أغير منه، وأن الله أغير منه صلى الله عليه وسلم، وأنه من أجل ذلك حرَّم الفواحش، فهذا تفسير

([٢٠٣]) فتح الباري، لابن حجر العسقلاني٣/ ٤٩١.

([٢٠٤]) رواه مسلم، برقم(٢٧٥٥).

لمعنى غيرة الله تعالى أي أنها منعه سبحانه وتعالى الناس من الفواحش وقوله صلى الله عليه وسلم" **لا شخص أغير من الله تعالى**" أي: لا أحد، وقيل: معناه لا ينبغي لشخص أن يكون أغير من الله تعالى ولا يتصور ذلك منه، فينبغي أن يتأدب الإنسان بمعاملته سبحانه وتعالى لعباده، فإنه لا يعاجلهم بالعقوبة بل حذرهم وأنذرهم وكرر ذلك عليهم وأمهلهم، فكذا ينبغي للعبد ألا يبادر بالقتل وغيره في غير موضعه، فإن الله تعالى لم يعاجلهم بالعقوبة مع أنه لو عاجلهم كان عدلا منه سبحانه وتعالى" [٢٠٥].

ومن التحذيرات النبوية في ذلك ما جاء عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" **ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**" [٢٠٦]، قال الإمام ابن حجر:" وفي الحديث أن الفتنة بالنساء أشد من الفتنة بغيرهن، ويشهد له قوله تعالى:﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ فجعل النساء من حب الشهوات، وبدأ بهن قبل بقية الأنواع إشارة إلى أنهن الأصل في ذلك، وقد قال بعض الحكماء: النساء شر كلهن وأشر ما فيهن عدم الاستغناء عنهن، ومع أنها ناقصة العقل والدين

([٢٠٥]) شرح صحيح مسلم، للنووي٥/ ٢٦٨، باختصار يسير.

([٢٠٦]) صحيح البخاري برقم(٤٧٠٦).

تحمل الرجل على تعاطي ما فيه نقص العقل والدين كشغله عن طلب أمور الدين وحمله على التهالك على طلب الدنيا وذلك أشد الفساد " [٢٠٧]

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" **إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**" [٢٠٨]، قال الإمام النووي معلقاً على هذا الحديث:" ومعناه: تجنبوا الافتتان بها وبالنساء، وتدخل في النساء الزوجات وغيرهن، وأكثرهن فتنة الزوجات، لدوام فتنتهن وابتلاء أكثر الناس بهن" [٢٠٩]

المسألة الثالثة: فضائل حفظ الفرج عن الحرام

كما أن الله سبحانه وتعالى حرم الزنا، وشدد في الوعيد على مرتكبه؛ وفي المقابل جعل الله جل جلاله فضائل كثيرة لمن عف عن حرمات المسلمين، ومن فضائل حفظ الفرج ما يلي:

([٢٠٧]) فتح الباري، لابن حجر ١٤/ ٣٣٧باختصار.

([٢٠٨]) صحيح مسلم، برقم(٤٩٢٥).

([٢٠٩]) شرح صحيح مسلم، للنووي٩/ ١٠٥.

أولا: أن حفظ الفرج من صفات أهل الإيمان

قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ ﴾[المؤمنون: ١ – ٧]، قال الإمام الشوكاني: " والمعنى إن الفلاح قد حصل لهم وأنهم عليه في الحال، والفلاح الظفر بالمراد والنجاة من المكروه، ثم وصف هؤلاء المؤمنين بقوله:﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾، الفرج يطلق على فرج الرجل والمرأة، والمعنى أنهم لفروجهم حافظون في جميع الأحوال إلا في حال تزوجهم أو تسريهم﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾الإشارة إلى الزوجات وملك اليمين، ومعنى﴿ٱلْعَادُونَ ﴾: المجاوزون إلى ما لا يحل لهم، فسمى سبحانه من نكح ما لا يحل عاديا، وقد دلت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة، واستدل بها بعض أهل العلم على تحريم الاستمناء لأنه من الوراء لما ذكر" [٢١٠].

([٢١٠]) فتح القير، للشوكاني٥/ ١٤٥باختصار.

ثانيا: الفوز بظل العرش يوم القيامة

وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله عد منهم: ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" **سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إمام عدل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه**" [٢١١] قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث:" قال القاضي: القاضي: يحتمل قوله: " **أخاف الله** " باللسان، ويحتمل قوله في قلبه؛ ليزجر نفسه، "**وذات المنصب**"، هي: ذات الحسب والنسب الشريف، ومعنى" **دعته**" أي دعته إلى الزنا بها، وخصَّ ذات المنصب والجمال بالذكر لكثرة الرغبة فيها وعسر حصولها، وهي جامعة للمنصب والجمال لا سيما وهي داعية إلى نفسها، طالبة لذلك، قد أغنت عن مشاق التوصل إلى مراودة ونحوها، فالصبر عنها لخوف الله تعالى من أكمل المراتب وأعظم الطاعات، فرتب الله تعالى عليه أن يظله في ظله، " [٢١٢] .

([٢١١]) صحيح البخاري برقم(١٣٣٤)، صحيح مسلم برقم(١٧١٢).

([٢١٢]) شرح صحيح مسلم، للنووي٣/ ٤٨١ ٤٨١.

وفي قصة يوسف أبلغ دليل على فضيلة العفة حسن عاقبتها، قال تعالى:﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[يوسف: ٢٣] قال سيد قطب عند هذه الآية:" كانت المراودة في هذه المرة مكشوفة، وكانت الدعوة فيها سافرة إلى الفعل الأخير، وحركة تغليق الأبواب لا تكون إلا في اللحظة الأخيرة، وقد وصلت المرأة إلى اللحظة الحاسمة التي تهتاج فيها دفعة الجسد الغليظة، ونداء الجسد الأخير ﴿ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ ﴾، هذه الدعوة السافرة الجاهرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة إنما تكون في الدعوة الأخيرة، وقد لا تكون أبدا إذا لم تضطر إليها المرأة اضطرارا ، والفتى يعيش معها وفتوته تتكامل، وأنوثتها هي كذلك تكمل وتنضج، فلا بد كانت هناك إغراءات شتى خفيفة لطيفة، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ ﴾،أعيذ نفسي بالله أن أفعل،﴿ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ ﴾، وأكرمني بأن نجاني من الجب وجعل في هذه الدار مثواي الطيب الآمن، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، الذين يتجاوزون حدود الله، فيرتكبون ما تدعينني اللحظة إليه، والنص هنا صريح وقاطع في أن رد يوسف المباشر على المراودة السافرة كان هو التأبي، المصحوب بتذكر نعمة الله عليه، وبتذكر حدوده وجزاء من يتجاوزون هذه الحدود، فلم تكن هناك استجابة في أول الموقف لما دعته إليه دعوة غليظة

جاهزة بعد تغليق الأبواب، وبعد الهتاف باللفظ الصريح الذي يتجمل القرآن في حكايته وروايته" [٢١٣]

ثالثا: مغفرة الذنوب

كما في قصة ذي الكفل الذي تورع عن الزنا بامرأة، بعد أن توفرت له كل أسبابه ودواعيه، فعن ابن عمر قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عد سبع مرات ولكني سمعته أكثر من ذلك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" **كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت فقال: ما يبكيك أأكرهتك؟ قالت: لا ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة،: فقال تفعلين أنت هذا وما فعلته اذهبي فهي لك، وقال لا والله لا أعصي الله بعدها أبدا، فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه إن الله قد غفر للكفل**" [٢١٤].

رابعا: تفريج الكروب

([٢١٣]) في ظلال القرآن، لسيد قطب٤/ ٣٠١ باختصار.

([٢١٤]) رواه الترمذي برقم(٢٤٩٦)، وقال عنه: هذا حديث حسن.

من فضائل حفظ الفرج عن الحرام أن من حفظه عن الحرام كان ذلك سبباً من أسباب تفريج الكروب على العبد، كما في قصة أصحاب الغار الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، وكان من بينهم رجل عف عن فعل الزنا بعد أن توفرت له كل أسبابه ودواعيه، وهى قصة مشابه لقصة ذي الكفل السابق ذكرها، فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" **بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر فمالوا إلى غار في الجبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل، فأطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالا عملتموها لله صالحة، فادعوا الله بها، لعله يفرجها فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران، ولي صبية صغار كنت أرعى عليهم، فإذا رحت عليهم فحلبت بدأت بوالدي أسقيهما قبل ولدي وإنه ناء بي الشجر**[٢١٥] **فما أتيت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما والصبية يتضاغون عند قدمي فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء ففرج الله لهم فرجة حتى يرون منها السماء، وقال الثاني: اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحبها كأشد ما**

([٢١٥]) أي تباعد عن مكاننا الشجر الذي ترعاه مواشينا، فبعدت عن أهلي في طلبه فكان ذلك سبب تأخري في العودة إليهم، ينظر: صحيح البخاري، تعليق. د/ مصطفى ديب البغا ٥/ ٢٢٢٨.

يحب الرجال النساء، فطلبت إليها نفسها فأبت، حتى آتيها بمائة دينار فسعيت حتى جمعت مائة دينار، فلقيتها بها فلما قعدت بين رجليها قالت: يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم فقمت عنها، اللهم فإن كنت تعلم أني قد فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها ففرج لهم فرجة، وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيرا بفرق أرز فلما قضى عمله قال أعطني حقي فعرضت عليه حقه فتركه ورغب عنه، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرا وراعيها فجاءني فقال: اتق الله ولا تظلمني وأعطني حقي فقلت: اذهب إلى ذلك البقر وراعيها فقال: اتق الله ولا تهزأ بي فقلت: إني لا أهزأ بك فخذ ذلك البقر وراعيها فأخذه فانطلق بها فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج ما بقي ففرج الله عنهم" [٢١٦]

المسألة الرابعة: التدابير الوقائية في الإسلام للحد من الزنا

ولما كان الدافع إلى الزنا قويا؛ لقوة الميل الطبيعي من الرجل إلى المرأة ومن المرأة إلى الرجل، كما قال تعالى:﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾[آل عمران:

([٢١٦]) صحيح البخاري، برقم(٥٥١٧).

١٤]' فقد جعل الإسلام جملة من التدابير الوقائية للحيلولة دون الوقوع في هذه الجريمة، وهذه التدابير التي متى ما حرص عليها المجتمع المسلم ندر فيه وقوع الزنا ندرة كبيرة، ومتى ما فرَّط فيها المجتمع المسلم فشت هذه الجريمة في أوساطه وانتشرت، ومن هذه التدابير الوقائية:

أولا: دعوة الإسلام للزواج لمن قدر على مؤنته

ميل الرجل للمرأة وميل المرأة للرجل ميلا فطريا، وهذ الميل الفطري له أهداف، ويتمثل ذلك في الحفاظ على النوع الإنساني، وتكوين الأسر على أساس من الطهر والنقاء، ولكي يقطع الإسلام الطريق على ممارسة الزنا والفجور شرع الزواج، وجعل اللقاء بين الرجل والمرأة يقوم على قاعدة من الطهر والعفاف؛ وبذلك يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات، قال ابن القيم:" فأما مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة فمشهد الجهال الذين لا فرق بينهم وبين سائر الحيوان إلا في اعتدال القامة ونطق اللسان ليس همهم إلا مجرد نيل الشهوة بأي طريق أفضت إليها فهؤلاء نفوسهم نفوس حيوانية لم تترقَ عنها إلى درجة الإنسانية فضلا عن درجة الملائكة، فهؤلاء حالهم أخس من أن تذكر وهم في أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التي هم على أخلاقها وطباعها، وأصحاب هذا المشهد ليس لهم شهود سوى ميل نفوسهم وشهواتهم لا يعرفون ما وراء ذلك ألبته" (٢١٧).

---

(٢١٧) مدارج السالكين، لابن القيم صـ ٤٠٠، باختصار.

وقد جعل الله سبحانه وتعالى الزواج آية من آياته في هذا الكون والوجود قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

وقد رغب الإسلام في الزواج ودعا إليه، ووعد من سلك طريق الزواج رغبة في عفة نفسه عن الحرام، وعده الله بالعون والغنى من فضله سبحانه، قال تعالى﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النور: ٣٢]، قال المراغي في تفسيره لهذه الآية:" أي زوجوا من لا زوج له من الأحرار والحرائر، من الرجال والنساء، والمراد بذلك، مد يد المساعدة بكل الوسائل حتى يتسنى لهم ذلك، كإمدادهم بالمال، وتسهيل الوسائل التي بها يتم ذلك الزواج والمصاهرة"[٢١٨].

وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الشباب إلى الزواج لمن قدر على مؤنته وتكاليفه؛ وذلك لما للزواج من أثر في حفظ الفرج عن الحرام، وتزكية النفس بكفها عن التطلع إلى الزنا وغيره من الفواحش، فعن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج**

([٢١٨]) تفسير المراغي١٨/ ١٠٤باختصار.

ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء" [٢١٩]، قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث:" واختلف العلماء في المراد بالباءة هنا على قولين يرجعان إلى معنى **واحد أصحهما:** أن المراد معناها اللغوي وهو الجماع، فتقديره: من استطاع منكم الجماع لقدرته على مؤنه وهي مؤن النكاح فليتزوج، ومن لم يستطع الجماع لعجزه عن مؤنه فعليه بالصوم ليدفع شهوته، ويقطع شر منيه، كما يقطعه الوجاء، **والقول الثاني:** أن المراد هنا بالباءة مؤنة النكاح، سميت باسم ما يلازمها وتقديره: من استطاع منكم مؤنة النكاح فليتزوج، ومن لم يستطعها فليصم؛ ليدفع شهوته، والذي حمل القائلين بهذا أنهم قالوا: قوله صلى الله عليه وسلم:" **ومن لم يستطع فعليه بالصوم**" قالوا: والعاجز عن الجماع لا يحتاج إلى الصوم لدفع الشهوة، فوجب تأويل الباءة على المؤن، وأجاب الأولون بما قدمناه في القول الأول، وهو أن تقديره: من لم يستطع الجماع لعجزه عن مؤنه، وهو محتاج إلى الجماع فعليه بالصوم ، والله أعلم" [٢٢٠].

ولما للزواج من أثر في صلاح النفس وحفظها من الانحراف، فقد جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل نصف الدين فعن أنس رضي الله عنه

([٢١٩]) صحيح مسلم، برقم(٢٤٨٥).

([٢٢٠]) شرح صحيح مسلم، للنووي٥/ ٧٠.

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" **من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه فليتق الله في الشطر الباقي**" (٢٢١).

وقد أنكر صلى الله عليه وسلم على من قرروا التبتل بترك الزواج وغيره من ملذات الحياة الدنيا، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال أنتم الذين قلتم كذا وكذا ك: " **أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني**" (٢٢٢) ، قال ابن حجر في شرحه لها الحديث:" المراد بالسنة الطريقة لا التي تقابل الفرض، والرغبة عن الشيء الإعراض عنه إلى غيره، والمراد من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني، ولمح بذلك إلى طريق الرهبانية، فإنهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله تعالى وقد عابهم بأنهم ما وفوه بما التزموه، وطريقة النبي صلى الله عليه وسلم الحنيفية السمحة، فَيُفْطر

---

(٢٢١) مستدرك الحاكم، برقم(٢٦٨١)، وقال عنه: هذا حديث صحيح الإسناد، وهو في صحيح الترغيب والترهيب، للألباني، برقم(١٩١٦)

(٢٢٢) صحيح البخاري، برقم(٤٦٧٥).

ليتقوى على الصوم، وينام ليتقوى على القيام، ويتزوج لكسر الشهوة وإعفاف النفس وتكثير النسل، وقوله صلى الله عليه وسلم:" **فليس مني**" أي على طريقتي، ولا يلزم أن يخرج عن الملة، وفي الحديث دلالة على فضل النكاح والترغيب فيه، وفيه تتبع أحول الأكابر للتأسي بأفعالهم، وأنه إذا تعذرت معرفته من الرجال جاز استكشافه من النساء، وأن من عزم على عمل بر واحتاج إلى إظهاره حيث يأمن الرياء لم يكن ذلك ممنوعا " [٢٢٣].

ثانيا: نهى الإسلام عن الإ قتراب من الزنا

وقد بَيَّن الله تعالى لعباده خطورة الزنا في قوله تعالى:﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]، قال القاسمي:" أي: إنه فِعْلَةٌ قبيحة متناهية في القبح، توجب النفرة عن صاحبه، والتفرقة بين الناس﴿وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾أي بئس طريقا طريقه، فإنه غصب الأبضاع المؤدي إلى اختلاف أمر الأنساب، وهيجان الفتن غصبا من غير سبب " [٢٢٤].

وهذا يقتضي بعد المؤمن والمؤمنة عن المواضع التي يحتمل فيها الوقوع في الزنا، وهي مواطن الفتنة؛ كالبلاد المنحلة، وأماكن الاختلاط والتبرج والسفور، والبعد عما يثير الغرائز والشهوات من أغان ماجنة، وأفلام عاهرة،

([٢٢٣]) فتح الباري، لابن حجر ١٤/ ٢٩٠.

([٢٢٤]) محاسن التأويل، للقاسمي٦/ ٤٥٩.

ومواقع إباحية، وقنوات فاضحة؛ فإن من أتى هذه المواطن فتحركت شهوته، أزَّه الشيطان على اتباع هذه الخطوة خطوة أخرى حتى يقع في الزنا، وما كان يظن لأول وهلة أن يصل إلى ما وصل إليه، ولكنها خطوات الشيطان التي حذرنا الله تعالى منها في سورة النور التي بينت أحكام الزناة والزواني، وذلك في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ ﴾ [النور: ٢١] قال الإمام الرازي:" المعنى لا تتبعوا آثار الشيطان ولا تسلكوا مسالكه في الإصغاء إلى الإفك والتلقي له وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، والله تعالى وإن خَصَّ بذلك المؤمنين فهو نهي لكل المكلفين في قوله:﴿ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾ ومعلوم أن كل المكلفين ممنوعون من ذلك، وإنما قلنا إنه تعالى خص المؤمنين بذلك؛ لأنه توعدهم على اتباع خطواته بقوله: ﴿ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ ﴾ وظاهر ذلك أنهم لم يتبعوه وإنما خصهم بالذكر ليتشددوا في ترك المعصية، لئلا يكون حالهم كحال أهل الإفك والفحشاء والفاحشة ما أفرط قبحه، والمنكر ما تنكره النفوس فتنفر عنه ولا ترتضيه" [٢٢٥].

([٢٢٥]) تفسير الرازي ٢٨٢/١١، باختصار.

ومن رحمة الله تعالى بعباده أن جعل لعباده كفارات لمن وقع في مقدمات الزنا، ثم تنبه وعاد لرشده وخاف مقام ربه فبادر بالتوبة إلى الله تعالى؛ وإتباع تلك السيئات بالحسنات، عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلا أصاب من امرأة قبلة، فأتى رسول الله فذكر ذلك له فأنزلت عليه ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾[هود: ١١٤] قال الرجل: ألي هذه؟ قال: لمن عمل بها من أمتي" [٢٢٦] فهذه كفارة الزنا الأصغر الذي يشمل كل شيء عدا الوطء.

فليجانب المسلم خطوات الشيطان، ليدحره من أول خطوة، فتزكوا أنفس بالإيمان والأعمال الصالحة؛ فإن الإيمان جُنَّة يعصم صاحبه من الإثم، وإن العمل الصالح يزيد الإيمان؛ حتى يجعله قويا متينا؛ فلا تغري صاحبه شهوة محرمة، ولا يقدر الشيطان منه على خطوة، فيعوضه الله تعالى في الدنيا خيرا مما ترك لأجله سبحانه، ويجزيه الله تعالى في الآخرة الجزاء الأوفى.

ثالثا: نهي المرأة عن خروجها متطيبة

فإن من دواعي فتنة الرجل بالمرأة ونزوعه إليها، ما يشم منها من الطيب الذي يفوح شذاه؛ فيجر ذلك إلى الفتنة، وقد وردت جملة من الأحاديث النبوية فيها نهي شديد للمرأة عن ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:" **أيما امرأة**

([٢٢٦]) صحيح ابن ماجه، للألباني، برقم(٤٢٤٤).

استعطرت، ثم خرجت، فمرت على قوم ليجدوا ريحها؛ فهي زانية" [٢٢٧]، وعن أبي هريرة رضى الله عنه، أن امرأة مرت به تعصف ريحها فقال: يا أمة الجبار المسجد تريدين؟ قالت: نعم قال: وله تطيبت؟ قالت: نعم قال: فارجعي فاغتسلي فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" **ما من امرأة تخرج إلى المسجد تعصف ريحها فيقبل الله منها صلاة حتى ترجع إلى بيتها فتغتسل**" [٢٢٨].

وعن عن زينب الثقفية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" **إذا خرجت إحداكن إلى المسجد فلا تقربن طيبا**" [٢٢٩]، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **أيما امرأة أصابت بخورا فلا تشهد معنا العشاء الآخرة** " [٢٣٠]، قال الشيخ الألباني في كتابه جلباب المرأة المسلمة:" وسبب منع النساء من الطيب واضح، وهو ما فيه من تحريك داعية الشهوة، فإذا كان ذلك حراما على مريدة المسجد فماذا يكون الحكم على مريدة السوق والأزقة والشوارع؟ لا شك أنه أشد حرمة وأكبر إثما، وهذه الأحاديث عامة تشمل جميع الأوقات؛ وإنما خُصَّ بالذكر العشاء الآخرة؛ لأن الفتنة وقتها أشد فلا يتوهمن منه أن خروجها في غير هذا الوقت جائز، والأظهر أنها خصت

([٢٢٧]) ومسند أحمد برقم(١٩٧٢٦)، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: إسناده جيد.

([٢٢٨]) سنن البيهقي ٣/ ١٣٣ وإسناده صحيح.

([٢٢٩]) مسند أحمد برقم(٢٧٠٩٢)، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح.

([٢٣٠]) صحيح مسلم، برقم (٦٧٥).

بالنهي؛ لأنها وقت الظلمة وخلو الطريق والعطر يهيج الشهوة فلا تأمن المرأة في ذلك الوقت من كمال الفتنة بخلاف الصبح والمغرب فإنهما وقتان فاضحان و مس الطيب يمنع المرأة من حضور المسجد مطلقا" [٢٣١].

وقد ذكر ابن حجر الهيتمي أن خروج المرأة من بيتها متعطرة متزينة من الكبائر ولو أذن لها زوجها" [٢٣٢].

([٢٣١]) جلباب المرأة المسلمة، للألباني صـ ١٣٩.

([٢٣٢]) الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيتمي٢/ ٣٢٩.

رابعا: منع الخلوة بالمرأة

لأن ذلك مدعاة إلى إغراء الشيطان لهما بالفاحشة مهما بلغا من التقوى، فعن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" **إياكم والدخول على النساء**"، فقال رجل من الأنصار يا رسول الله أفرأيت الحمو قال:" **الحمو الموت**" [٢٣٣] قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث:" المراد بالحمو في الحديث أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه؛ كالأخ وابن الأخ والعم وابن العم وابن الأخت ونحوهم مما يحل لها تزويجه لو لم تكن متزوجة؛ لأن الخوف منه أكثر من غيره، والشر يتوقع منه، والفتنة أكثر لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة من غير أن ينكر عليه، بخلاف الأجنبي، وجرت العادة بالتساهل فيه فيخلو الأخ بامرأة أخيه فشبهه بالموت وهو أولى بالمنع من الأجنبي" [٢٣٤]

وقد ورد في حديث آخر أن الشيطان يحضر مجلس الخلوة بين الرجل والمرأة ليزين لهما الوقوع في فاحشة الزنى فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسوله الله صلى الله عليه وسلم قال:"... لا يخلونّ أحدكم بامرأة فإنّ الشّيطان ثالثهما ومن سرّته حسنته وساءته سيّئته فهو مؤمن " [٢٣٥] .

([٢٣٣]) صحيح البخاري، برقم (٤٨٣١)، ورواه مسلم برقم:(٤٠٣٧).

([٢٣٤]) شرح صحيح مسلم، للنووي٧/ ٣٠٨ بتصرف يسير.

([٢٣٥]) مسند أحمد برقم:(١١٤)، وقال عنه شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين، الحديث مختصر.

فمن خلا بامرأة لا تحل له فقد عصى الله ورسوله، وعرض نفسه للفتنة، سواء كانت الخلوة في بيت، أو مكتب، أو متجر، أو في سيارة، أو في أي مكان آخر.

المسألة الخامسة: ضوابط الزواج الناجح

شرع الإسلام جملة من الأمور والضوابط والتي متى ما تحقق بها المسلم زكت نفسه بالزواج وحصلت له الوقاية من الوقوع في فاحشة الزنا، ومن هذه الأمور ما يلي:

أولا: تصحيح نية الزواج

فلا يجعل المسلم نيته من الزواج قضاء الشهوة فقط، بل لابد أن ينوي قبل ذلك أن يجعل من هذ العمل المباح عباده يتعبد بها لله تعالى، ويحصن بها نفسه عن الحرام، ويجعل هدف قضاء الشهوة بعد ذلك، فعن أبي ذر رضي الله عنه: إن ناسا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم –: "يا رسول الله! ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم. قال: "أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به؛ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، **وفي بضع أحدكم صدقة**". قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: " **أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**" [٢٣٦]، قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث:" فيه أن الإنفاق على العيال يثاب عليه إذا قصد به وجه الله تعالى،

([٢٣٦]) صحيح مسلم، برقم(١٦٧٤).

وفيه: أن المباح إذا قصد به وجه الله تعالى صار طاعة، ويثاب عليه، وقد نبه صلى الله عليه وسلم على هذا بقوله صلى الله عليه وسلم:" **حتى اللقمة تجعلها في فِيِّ امرأتك**"[٢٣٧] ؛ لأن زوجة الإنسان هي من أخص حظوظه الدنيوية وشهواته وملاذه المباحة، وإذا وضع اللقمة في فيها فإنما يكون ذلك في العادة عند الملاعبة والملاطفة والتلذذ بالمباح، فهذه الحالة أبعد الأشياء عن الطاعة وأمور الآخرة، ومع هذا فأخبر صلى الله عليه وسلم أنه إذا قصد بهذه اللقمة وجه الله تعالى، حصل له الأجر بذلك، فغير هذه الحالة أولى بحصول الأجر إذا أراد وجه الله تعالى، ويتضمن ذلك أن الإنسان إذا فعل شيئا أصله على الإباحة، وقصد به وجه الله تعالى يثاب عليه، وذلك كالأكل بنية التقوي على طاعة الله تعالى، والنوم للاستراحة؛ ليقوم إلى العبادة نشيطا، والاستمتاع بزوجته وجاريته؛ ليكف نفسه وبصره ونحوهما عن الحرام؛ وليقضي حقها؛ ليحصل ولدا صالحا، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: " **وفي بضع أحدكم صدقة** " والله أعلم "[٢٣٨]

ثانيا: حسن اختيار الزوجة

ذلك أن الزوجة سوف يكون لها أثر كبير في سعادة الزوج أوشقائه، والزوجة هى محل سكن الرجل، وبها يعف نفسه عن الحرام، فإذ كانت

([٢٣٧]) مسند أحمد، برقم(١٥٢٤)، وقال عنه شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين

([٢٣٨]) شرح صحيح مسلم، للنووي٦/ ١٦.

الزوجة صالحة حفظت عرضها ونفسها عن الحرام، واكتفى الرجل بعشرتها عن غيرها ولم يتطلع إلى فعل الحرام مع غيرها؛ لهذا أرشد الإسلام المسلم إلى أن يحرص المسلم على اختيار ذات الدين والخلق؛ من أجل تحقيق هذه المقاصد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " **تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك**" [٢٣٩] ، قال الإمام ابن حجر في شرحه لهذا الحديث:" قوله صلى الله عليه وسلم" **فاظفر بذات الدين**" معناه أن اللائق بذي الدين والمروءة أن يكون الدين مطمح نظره في كل شيء لا سيما فيما تطول صحبته فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بتحصيل صاحبة الدين الذي هو غاية البغية، قوله صلى الله عليه وسلم " **تربت يداك** " أي لصقتا بالتراب، وهو كناية عن الفقر وهو خبر بمعنى الدعاء، لكن لا يراد به حقيقته " [٢٤٠].

وكما يطالب الزوج بحسن اختيار الزوجة كذلك ينبغي لولي أمر الزوجة أن يحرص على أن يختار لابنته صاحب الدين والخلق، فعن أبي حاتم المزني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلمك" **إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد** " [٢٤١].

([٢٣٩]) صحيح البخاري، برقم(٤٧٠٠).

([٢٤٠]) فتح الباري، لابن حجر ١٤/ ٣٣٠، باختصار.

([٢٤١]) رواه الترمذي برقم(١٠٨٥)، قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب.

ثالثا: إتيان الزوجة عند خوف الفتنة

ذلك أن الإسلام جعل الزواج وسيلة مباحة ومشروعة لقضاء الشهوة، فالله تعالى لم يحرم شيئا إلا أباح في مقابله ما هو حلال، لهذا أرشد الإسلام إلى أن يأتي الرجل أهله إذا رآى من غيرها ما يثير شهوته ويدعوه إلى الحرام، وخاصة في المجتمعات التي ينتشر فيها الاختلاط ويكثر فيها التبرج والسفور، فعن جابر ابن عبد الله رضى الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" **إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان؛ فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله فإن ذلك يرد ما في نفسه**"، قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث:" معنى الحديث: أنه يستحب لمن رأى امرأة فتحركت شهوته أن يأتي امرأته، فليواقعها ليدفع شهوته، وتسكن نفسه، ويجمع قلبه على ما هو بصدده، وقوله صلى الله عليه وسلم:" **إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان**" قال العلماء: معناه: الإشارة إلى الهوى والدعاء إلى الفتنة بها لما جعله الله تعالى في نفوس الرجال من الميل إلى النساء، والالتذاذ بنظرهن، وما يتعلق بهن، فهي شبيهة بالشيطان في دعائه إلى الشر بوسوسته وتزيينه له، ويستنبط من هذا أنه ينبغي لها ألا تخرج بين الرجال إلا لضرورة، وأنه ينبغي للرجل الغض عن ثيابها، والإعراض عنها مطلقا" [٢٤٢].

([٢٤٢]) شرح صحيح مسلم، للنووي٥/ ٧٥.

المسألة السادسة: من الأسباب التي تدعو إلى الزنا

هناك جملة من الأسباب التي متى ما تساهل المجتمع بوجودها ومارسها بعض أبنائه ولم ينكر عليهم بقية أفراد المجتمع، ستؤدي إلى سهلة الوصول إلى فاحشة الزنا وتيسرت الطريق إليها، ومن أهم هذه الأسباب ما يلي:

أولا: التبرج والسفور

لما في ذلك من الفساد العظيم، قال تعالى:﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، قال ابن عاشور:" هذا الحكم واجوب على أمهات المؤمنين وهو كمال لسائر النساء، وهذه الآية تقتضي وجوب مكث أزواج النبيء صلى الله عليه وسلم في بيوتهن وأن لا يخرجن إلاَّ لضرورة، ومحمل هذا الأمر على ملازمة بيوتهن فيما عدا ما يضطر فيه الخروج مثل موت الأبوين، وقد خرجت عائشة إلى بيت أبيها أبي بكر في مرضه الذي مات فيه ، وكن يخرجن للحج وفي بعض الغزوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل ذلك مما يفيد إطلاق الأمر في قوله: وقرن في بيوتكن" [٢٤٣].

ثانيا: الخضوع بالقول

([٢٤٣]) التحرير والتنوير، الابن عاشور ٢٢/ ١٠، باختصار.

لأنه يفتح أبواب الفتنة على مصراعيةقال تعالى:﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، قال سيد قطب عند هذه الآية:" من هن اللواتي يحذرهن الله هذا التحذير؟، إنهن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأمهات المؤمنين، اللواتي لا يطمع فيهن طامع، ولا يَرِفُ عليهن خاطر مريض، فيما يبدو للعقل أول مرة، وفي أي عهد يكون هذا التحذير؟ في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعهد الصفوة المختارة من البشرية في جميع الإعصار، والله الذي خلق الرجال والنساء يعلم أن في صوت المرأة حين تخضع بالقول، وتترقق في اللفظ، ما يثير الطمع في قلوب، ويهيج الفتنة في قلوب، وأن القلوب المريضة التي تثار وتطمع موجودة في كل عهد، وفي كل بيئة، وتجاه كل امرأة، ولو كانت هي زوج النبي الكريم، وأم المؤمنين، وأنه لا طهارة من الدنس، ولا تخلص من الرجس، حتى تمتنع الأسباب المثيرة من الأساس.

فكيف بهذا المجتمع الذي نعيش اليوم فيه، في عصرنا المريض الدنس الهابط، الذي تهيج فيه الفتن وتثور فيه الشهوات، وترف فيه الأطماع؟ ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾، نهاهن من قبل عن النبرة اللينة واللهجة الخاضعة؛ وأمرهن في هذه أن يكون حديثهن في أمور معروفة غير منكرة؛ فإن موضوع الحديث قد يطمع مثل لهجة الحديث، فلا ينبغي أن يكون بين المرأة والرجل الغريب لحن ولا إيماء، ولا دعابة ولا مزاح، كي لا يكون مدخلا إلى شيء

آخر وراءه من قريب أو من بعيد، والله سبحانه الخالق العليم بخلقه وطبيعة تكوينهم هو الذي يقول هذا الكلام لأمهات المؤمنين الطاهرات، كي يراعينه في خطاب أهل زمانهن خير الأزمنة على الإطلاق! "[٢٤٤]

ثالثا: الاختلاط

وقد جاء النهي عن الاختلاط في قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وهذه الآية لها سبب نزول، فعن أنس رضى الله عنه قال: قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب" [٢٤٥].

قال الشيخ المراغي في تفسيره لهذه الآية:" أي وإذا سألتم أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونساء المؤمنين اللواتي لسن لكم بأزواج، شيئا تتمتعون به من ماعون وغيره فاطلبوا منهن ذلك من وراء ستر بينكم وبينهن، ثم بين سبب ما تقدم بقوله:﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾أي ذلك الدخول بالإذن وعدم الاستئناس للأحاديث أطهر لقلوبكم وقلوبهن من وساوس الشيطان

([٢٤٤]) في ظلال القرآن، لسيد قطب٦/ ٧٧.

([٢٤٥]) صحيح البخاري، برقم(٤٤١٦).

والريب؛ لأن العين رسول القلب، فإذا لم تر العين لم يشته القلب، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر، وعدم الفتنة، حينئذ أظهر"[٢٤٦] .

وقد منع الرسول صلى الله عليه وسلم مخالطة النساء للرجال في المساجد التي هى أحب البقاع إلى الله تعالى، وفي الصلاة التي هى عمود الإسلام، فغيرها بالمنع أولى فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها**"[٢٤٧].

قال الإمام النووي في شرحه لحديث:" وإنما فضل آخر صفوف النساء الحاضرات مع الرجال لبعدهن من مخالطة الرجال ورؤيتهم وتعلق القلب بهم عند رؤية حركاتهم وسماع كلامهم ونحو ذلك، وذم أول صفوفهن لعكس ذلك، المراد بالحديث صفوف النساء اللواتي يصلين مع الرجال، وأما إذا صلين متميزات لا مع الرجال فهن كالرجال خير صفوفهن أولها وشرها آخرها، والمراد بشر الصفوف في الرجال النساء أقلها ثوابا وفضلا وأبعدها من مطلوب مِنْ مطلوب الشرع ، وخيرها بعكسه " [٢٤٨].

([٢٤٦]) تفسير المراغي٢٢/ ٣١ باختصار.

([٢٤٧]) صحيح مسلم، برقم(٤٤٠).

([٢٤٨]) شرح صحيح مسلم، للنووي٢/ ١٨٣باختصار وتصرف يسير.

المسألة السابعة: ضوابط شرعية لعمل المرأة واختلاطها بالناس

المسألة السابعة: عقوبات الزناة

لما كان الزنا من أعظم المفاسد، وأخطر الفواحش التي تهدد المجتمع المتلبس به، فقد نهى الله عباده أن يقربوه، ورتب عليه أشنع العقوبات العاجلة والآجلة؛ لأنه يدمر الأخلاق، ويخلط الأنساب، ويفسد العلاقات، وبعض النفوس الشريرة، ذات النزعات الخاطئة، والأعمال السيئة جعل الله لها رادع يكبح جماحها، ويخفف من حدتها، فشرع رب العباد وهو الرؤوف الرحيم عقوبات متنوعة لمرتكبي الزنا، لتردع المعتدي، وقد تنوعت عقوبات الزنا، فمنها عقوبات دنيوية وأخرى أخروية، على النحو التالي:

أولا: نفي كمال الإيمان عن الزاني

عن أبي هريرة رضي الله عنه إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " **لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**"[٢٤٩]، قال الإمام النووي في شرحه لهذ الحديث:" هذا الحديث مما اختلف العلماء في معناه، فالقول الصحيح الذي قاله المحققون أن معناه: لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء ويراد نفي كماله، وإنما

([٢٤٩]) صحيح البخاري، برقم(٥١٥٠).

تأولناه على ما ذكرناه لحديث أبي ذر وغيره " **من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: نعم**" [٢٥٠]، وحديث عبادة بن الصامت الصحيح المشهور أنهم بايعوه صلى الله عليه وسلم على أن لا يسرقوا ولا يزنوا، ولا يعصوا إلى آخره، ثم قال لهم صلى الله عليه وسلم " **فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن فعل شيئا من ذلك فعوقب في الدنيا فهو كفارته، ومن فعل ولم يعاقب فهو إلى الله تعالى إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه** " [٢٥١].

فهذان الحديثان مع نظائرهما في الصحيح مع قول الله عز وجل:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ١١٦] مع إجماع أهل الحق على أن الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر غير

([٢٥٠]) صحيح الأدب المفرد، للبخاري برقم[٨٠٣]، ونص الحديث:" عن أبي ذر قال : انطلق النبي صلى الله عليه وسلم نحو البقيع، وانطلقت أتلوه، فالتفت فرآني. فقال: "**يا أبا ذر!** ". فقلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، وأنا فداؤك، فقال: "**إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة، إلا من قال هكذا وهكذا في حق** ". قلت: الله ورسوله أعلم. فقال: "**هكذا** " (ثلاثا) ، ثم عرض لنا أحد فقال: " **يا أبا ذر!** " فقلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، وأنا فداؤك، قال: "**ما يسرني أن أحدا لآل محمد ذهبا، فيمسي عندهم دينار- أوقال- مثقال**". ثم عرض لنا واد، فاستتل فظننت أن له حاجة، فجلست على شفير، وأبطأ علي، قال: فخشيت عليه، ثم سمعته كأنه يناجي رجلا، ثم خرج إلي وحده. فقلت: يا رسول الله! **من الرجل الذي كنت تناجي؟** فقال: "أو سمعته؟ " قلت: نعم. قال: "فإنه جبريل أتاني، **فبشرني أنه من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة**". قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: **نعم**".

([٢٥١]) صحيح مسلم، برقم(٣٢٢٣).

الشرك، لا يَكْفُرون بذلك، بل هم مؤمنون ناقصو الإيمان، إن تابوا سقطت عقوبتهم، وإن ماتوا مصرين على الكبائر كانوا في المشيئة، فإن شاء الله تعالى عفا عنهم وأدخلهم الجنة أولا، وإن شاء عذبهم، ثم أدخلهم الجنة، وتأول بعض العلماء هذا الحديث على من فعل ذلك مستحلا له مع علمه بورود الشرع بتحريمه، وقال الحسن وأبو جعفر محمد بن جرير الطبري: معناه ينزع منه اسم المدح الذي يسمى به أولياء الله المؤمنين، ويستحق اسم الذم فيقال: سارق، وزان وفاجر، وفاسق، وحكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن معناه: ينزع منه نور الإيمان، وذهب الزهري إلى أن هذا الحديث، وما أشبهه، يؤمن بها، ويمر على ما جاءت، ولا يخاض في معناها وأنا لا نعلم معناها، وقال: أمروها كما أمرها من قبلكم، وهذه الأقوال التي ذكرتها في تأويله كلها محتملة، والصحيح في معنى الحديث ما قدمناه أولا والله أعلم"[٢٥٢].

فالمؤمن لا يوقع نفسه في الزنا؛ لأنه يخشى ألا يُرَدَّ إليه إيمانه فيكون ذلك خسران، فكيف يلاقي ربه وهو على خطيئة الزنا منزوع الإيمان، وكل من زنى دخل في هذا الوعيد سواء كان بكرا أو محصنا وسواء كان المزني بها أجنبية أو محرما، ولا شك أنه في حق المحرم فحش ومن المتزوج أعظم.

([٢٥٢]) شرح صحيح مسلم، للنووي١/ ١٤٨، باختصار.

ثانيا: إقامة الحد على الزناة

يختلف الحد على مرتكب فاحشة الزنا بحسب حاله ووصفة، فقد يكون الزاني بكرا أو محصنا، ويختلف حد كل واحد منهما عن الآخر، فإذا كان الزاني غير محصن أي بكر فيجلد مئة جلدة وينفى عن بلده عاما ودليله قول الله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾[النور: ٢] ، قال ابن عاشور:" الزنى هو: جماع بين الرجل والمرأة اللذين لا يحل أحدهما للآخر ، والخطاب بالأمر بالجلد موجه إلى المسلمين، فيقوم به من يتولى أمور المسلمين من الأمراء والقضاة ولا يتولاه الأولياء.

واتفق فقهاء الأمصار على: أن ضرب الجلد بالسوط، أي بسير من جلد، والسوط: هو ما يضرب به الراكب الفرس وهو جلد مضفور، وأن يكون السوط متوسط اللين، وأن يكون رفع يد الضارب متوسطا، ومحل الجلد هو الظهر عند مالك، وقال الشافعي: تضرب سائر الأعضاء ما عدا الوجه والفرج، وأجمعوا على ترك الضرب على المَقَاتِل، ومنها الرأس.

وقدم ذكر﴿ ٱلزَّانِيَةُ ﴾ على ﴿ وَٱلزَّانِي ﴾ للاهتمام بالحكم؛ لأن المرأة هي الباعث على زنى الرجل وبمساعفتها الرجل يحصل الزنى ولو منعت المرأة نفسها ما وجد الرجل إلى الزنى تمكينا، فتقديم المرأة في الذكر؛ لأنه أشد في

تحذيرها وقوله: ﴿ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنۡهُمَا ﴾ للدلالة على أنه ليس أحدهما بأولى بالعقوبة من الآخر" (٢٥٣).

وإذا كان الزاني محصن فيرجم بالحجارة وهو حتى الموت، سواء أكان رجلا أو امرأة فعن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم**" (٢٥٤)، قال الإمام النووي في شرحه لهذ الحديث:" وأجمع العلماء على وجوب جلد الزاني البكر مائة، ورجم المحصن وهو الثيب، ولم يخالف في هذا أحد من أهل القبلة، إلا ما حكى القاضي عياض وغيره عن الخوارج وبعض المعتزلة، كالنظام وأصحابه، فإنهم لم يقولوا بالرجم" (٢٥٥).

ثالثاً: عقوبة الزناة في القبر

أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الزناة يعذبون في قبورهم إلى يوم القيامة، وجاء وصفه لعذابهم في حديث رؤياه صلى الله عليه وسلم التي قصها على الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين وفيها:" **فانطلقنا فأتينا**

---

(٢٥٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٩/ ٤٢٦بالختصار وتصرف.

(٢٥٤) صحيح مسلم، برقم(٣١٩٩).

(٢٥٥) شرح صحيح مسلم، للنووي٦/ ١٠٩.

على مثل التنور، وإذا فيه لغط وأصوات، قال: فاطلعنا فيه، فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا [٢٥٦] **، وفي آخر الحديث سأل عنهم صلى الله عليه وسلم، فقيل: وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنور فإنهم الزناة والزواني"** [٢٥٧].

قال ابن حجر في شرحه لهذا الحديث:" مناسبة العري لهم لاستحقاقهم أن يفضحوا؛ لأن عادتهم أن يستتروا في الخلوة فعوقبوا بالهتك، والحكمة في إتيان العذاب من تحتهم كون جنايتهم من أعضائهم السفلى " [٢٥٨]

رابعا: عقوبة الزناة في الآخرة

لا يستوي عذاب الدنيا وعذاب الآخرة؛ فعذاب الدنيا ينتهي بموت الإنسان، أما عذاب الآخرة فيكون الإنسان خالدا مخلدا فيه أبدا، إلا أن تتداركه رحمة الله تعالى، وقد وصف الله تعالى عذاب الزناة في الآخرة في قوله:﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن

([٢٥٦]) ضوضوا أي: ضجُّوا واستغاثوا، والضوضاة : أصْوَات الناسِ وغَلَبتهم، النهاية في غريب الأثر (٣/ ٢٢٧، لابن الأثير.

([٢٥٧]) رواه البخاري، برقم(٦٥٢٥).

([٢٥٨]) فتح الباري، لابن حجر ١٢/ ٥٢.

يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٨ – ٧٠]، جاء في تفسير ابن كثير قول ابن عباس رضى الله عنه: "إن اسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ ﴾، قال عكرمة ﴿ أَثَامًا ﴾: أودية في جهنم يعذب فيها الزناة، وقال قتادة: ﴿ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴾ نكالا كنا نحدث أنه واد في جهنم، ﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ أي: يكرر عليه ويغلظ، ﴿ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ أي: حقيرا ذليلا، جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا ﴾ في الدنيا إلى الله من جميع ذلك، فإن الله يتوب عليه. وقوله: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾: في معنى قوله: ﴿ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ ﴾ قولان: **أحدهما**: أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في: هم المؤمنون، كانوا من قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله بهم عن ذلك فحولهم إلى الحسنات، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات.

والقول الثاني: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار، فيوم القيامة وإن وجده مكتوبا عليه لكنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته، ، فعن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **إني لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار وآخر أهل الجنة دخولا الجنة، يؤتى برجل فيقول: نحُّوا كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها قال فيقال له: عملت كذا يوم كذا وكذا وعملت كذا يوم كذا وكذا قال فيقول: يا رب لقد عملت أشياء لم أرها هنا قال فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه قال فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة**" [٢٥٩] [٢٦٠].

([٢٥٩]) مسند أحمد، برقم(٢١٥٣٠)، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

([٢٦٠]) تفسير ابن كثير٥/ ١٢٦ باختصار.

خامساً: الحرمان من رؤية الله تعالى في الآخرة

ومن العقوبات التي تقع على الزناة في الآخرة أن الله لا ينظر إليهم يوم القيامة، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم قال أبو معاوية ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم، شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر**" [٢٦١]، قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث:" وأما تخصيصه صلى الله عليه وسلم في الحديث" الشيخ الزاني والملك الكذاب والعائل المستكبر بالوعيد المذكور: فقال القاضي عياض: سببه أن كل واحد منهم التزم المعصية المذكورة مع بعدها منه، وعدم ضرورته إليها، وضعف دواعيها عنده؛ وإن كان لا يعذر أحد بذنب لكن لما لم يكن إلى هذه المعاصي ضرورة مزعجة، ولا دواعي معتادة، أشبه إقدامهم عليها المعاندة، والاستخفاف بحق الله تعالى، وقصد معصيته لا لحاجة غيرها؛ فإن الشيخ لكمال عقله وتمام معرفته بطول ما مر عليه من الزمان، وضعف أسباب الجماع والشهوة للنساء، واختلال دواعيه لذلك، عنده ما يريحه من دواعي الحلال في هذا ويخلي سره منه فكيف بالزنا الحرام، وإنما دواعي ذلك الشباب، والحرارة الغريزية، وقلة المعرفة، وغلبة الشهوة لضعف العقل، وصغر السن" [٢٦٢].

([٢٦١]) صحيح مسلم، برقم(١٥٦).

([٢٦٢]) شرح صحيح مسلم، للنووي ١/ ٢١٩.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن الزنا لا ينحصر في لعلاقة غير الشرعية بين الرجل والمرأة فقط، وهناك ما يسمى بالزنا الأصغر والذي يشمل مقدمات الزنا، فسماع الحرام والنظر الحرام واللمس الحرام كلها من مقدمات الزنا الأكبر الذي يكون بالفرج ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" **إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان النطق والنفس تمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**" [٢٦٣]، قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحيث:" أي: إن ابن آدم قُدر عليه نصيبه من الزنا، فمنهم من يكون زناه حقيقيا بإدخال الفرج في الفرج الحرام، ومنهم من يكون زناه مجازا بالنظر الحرام أو الاستماع إلى الزنا وما يتعلق بتحصيله، أو بالمس باليد بأن يمس أجنبية بيده، أو يقبلها، أو بالمشي بالرجل إلى الزنا، أو النظر، أو اللمس، أو الحديث الحرام مع أجنبية، ونحو ذلك، أو بالفكر بالقلب، فكل هذه أنواع من الزنا المجازي، والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه. معناه أنه قد يحقق الزنا بالفرج، وقد لا يحققه بألا يولج الفرج في الفرج، وإن قارب ذلك " [٢٦٤].

وقد وصف القرآن مقدمات الزنا بأنها لمم كما قال تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ

([٢٦٣]) صحيح مسلم، برقم(٤٨٠١).

([٢٦٤]) شرح صحيح مسلم، للإمام النووي٩/ ٧.

﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النجم: ٣٢]

قال ابن الجوزي: " واللمم في كلام العرب: المقاربة للشيء قال ابن مسعود، وأبو هريرة، والشعبي، ومسروق أنه صغار الذنوب، كالنظرة والقبلة وما كان دون الزنا" [٢٦٥].

فإذا علم المسلم عقوبة الزناة في الدنيا والآخرة، ابتعد عنه وعن الطرق المؤدية إليه،

وسأل ربه أن يزكي نفسه وأن يعصمه من هذه الفاحشة التي قد تقود صاحبها للهلال في الدنيا والآخرة، إن لم يتب إلى ربه، وتتداركه رحمة الله تعالى.

([٢٦٥]) زاد المسير، لابن الجوزي٥/ ٤٤٤.

السبب الثالث: حفظ الفرج من اللواط

كما أنه يجب على المسلم حفظ فرجه عن فاحشة الزنا التزكو بذلك نفسه، كذلك يجب عليه حفظ فرجه من فاحشة اللواط، وقد جاءت الإشارة إلى هذا السبب في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[النور: ٣٠]، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم منها أشد التحذير من اللواط حتى خافه على أمته من بعده، فعن جابرا ابن عبد الله رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط**" [٢٦٦]، قال الطيبي:" أضاف أفعل (أخوف) إلى ما وهي نكرة موصوفة؛ ليدل على أنه استقصي الأشياء المخوف منها شيئا بعد شيء لم يوجد أخوف من فعل قوم لوط" [٢٦٧].

وعن بن عباس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" **لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط،**

([٢٦٦]) سنن الترمذي برقم(١٣٧٧)، وقال عنه أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وهو في صحيح الترغيب والترهيب، للألباني برقم(٢٤١٧).

([٢٦٧]) تحفة الأحوذي، شرح جامع الترمذي، للمباركفوري ٩/ ١٩.

لعن الله من عمل عمل قوم لوط" [٢٦٨]، وسوف ينتظم الحديث في هذا السبب في ست مسائل على النحو التالي:

المسألة الأولى: البداية الأولى لفاحشة اللواط

وقد قص الله علينا في كتابه الكريم قصة قوم لوط، وهم قوم من بني البشر فسدت أنفسهم وتنكست فطرهم فشذوا عن فطرة الله التي فطر الناس عليها، فقلبوا الموازين، واستبدلوا الخير بالشر، والعفة والنزاهة، بالخسة والقذارة، وهذه الفاحشة أول من بدئها على وجه الأرض قوم لوط، ولم تكن تعرف قبلهم، قال الله تعالى:﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النمل: ٥٤ – ٥٦] قال الإمام الطبري:" أي: أرسلنا لوطا إلى قومه، إذ قال لهم: يا قوم ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أنها فاحشة اللواط؛ لعلمكم بأنه لم يسبقكم إلى ما تفعلون من ذلك أحد من العالمين، وقوله تعالى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ ﴾ اللاتي أباحها الله لكم بالنكاح، وقوله:﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ يقول: ما فعلتم ذلك إلا أنكم قوم سفهاء جهلة

([٢٦٨]) سنن النسائي برقم(٧٣٣٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم(٣٤٦٢).

بعظيم حق الله عليكم، فخالفتم أمره، وعصيتم رسول، فلم يكن لقوم لوط جواب له، إذ نهاهم عما أمره الله بنهيهم عنه من إتيان الرجال، إلا أن قال بعضهم لبعض:﴿ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ عما نفعله نحن من إتيان الذكران في أدبارهم" (٢٦٩).

وقد أخبر الله تعالى في كتابه الكريم ما حصل بين هؤلاء القوم وبين نبيهم فقد هموا بضيوف نبيهم لوط عليه السلام ليفعلوا بهم فاحشة اللواط، وقد دفعهم لوط ليثنيهم عن مرادهم، وقدم لهم له بناته ليزوجهم إياهن، كما قال تعالى:﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ ﴾ [هود: ٧٧ – ٧٩]

قال الإمام ابن القيم حول فاحشة اللواط:" تأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم على الله حيث جاءوا نبيهم لوطا لما سمعوا بأنه قد طرقه أضياف هم من أحسن البشر صورا، فأقبل اللوطية إليهم يهرولون، فلما رآهم قال لهم:﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ ﴾ [هود: ٧٨] ففدى أضيافه ببناته يزوجهم بهم خوفا على نفسه وأضيافه من العار الشديد، فقالوا له:﴿ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي

---

(٢٦٩) تفسير الطبري ١٩/ ٤٨١، باختصار وتصرف.

بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [هود: ٧٩] فبينوا أن الدافع لهم لهذه الفاحشة الشهوة لا الحاجة التي لأجلها مال الذكر إلى الأنثى، ومن قضاء الوطر ولذة الاستمتاع، وحصول المودة والرحمة التي تنسى المرأة لها أبويها، وتذكر بعلها، وحصول النسل الذي هو حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات، وتحصين المرأة وقضاء وطرها، وحصول علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب، وقيام الرجال على النساء، وخروج أحب الخلق إلى الله من جِمَاعِهن كالأنبياء والأولياء والمؤمنين، ومكاثرة النبي صلى الله عليه وسلم الأنبياء بأمته إلى غير ذلك من مصالح النكاح، والمفسدة التي في اللواط تُقَاوِمْ ذلك كله، وتربي عليه بما لا يمكن حصر فساده، ولا يعلم تفصيله إلا الله.

وأهل اللوطية عكسوا فطرة الله التي فطر الله عليها الرجال، وقلبوا الطبيعة التي ركبها الله في الذكور، وهي شهوة النساء دون الذكور، فقلبوا الأمر، وعكسوا الفطرة والطبيعة فأتوا الرجال شهوة من دون النساء، ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وكذلك قلبوا هم، ونكسوا في العذاب على رؤوسهم، ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن حكم عليهم بالإسراف وهو مجاوزة الحد، فقال:﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٨١]، ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين في غاية القبح فقال:﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٤] وسماهم مفسدين في قول نبيهم:﴿ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾[العنكبوت: ٣٠]، فبينت له ملائكة الله عن حقيقة الحال،

وأعلموه أنهم ممن ليسوا يوصل إليهم، ولا إليه بسببهم، فلا تخف منهم، ولا تعبأ بهم، وهون عليك، فقالوا له:﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ ﴾[هود: ٨١] بشروه بما جاءوا به من الوعد له ولقومه فقالوا:﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴾ [هود: ٨١]، فاستبطأ نبي الله موعد هلاكهم، وقال: أريد أعجل من هذا، فقالت الملائكة:﴿ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴾، فوالله ما كان بين إهلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر، وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصلها، ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير، فبرز المرسوم الذي لا يرد من عند الرب الجليل، إلى عبده ورسوله جبرائيل، بأن قلبها عليهم كما أخبر به في محكم التنزيل، فقال عز من قائل: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣ ﴾ [هود: ٨٢ – ٨٣] وقد قرب الله سبحانه مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين إخوانهم في العمل، فقال مخوفا لهم أن يقع الوعيد: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴾ [هود: ٨٣].

وقد جعلهم آية للعالمين وموعظة للمتقين، ونكالا وسلفا لمن شاركهم في أعمالهم من المجرمين، وجعل ديارهم بطريق السالكين،﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ

﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحجر: ٧٥ – ٧٧] أخذهم على غرة وهم نائمون، وجاءهم بأسه وهم في سكرتهم يعمهون، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، فقلبت تلك اللذة آلاما، فأصبحوا بها يعذبون.

فذهبت اللذات وأعقبت الحسرات، وانقضت الشهوات، وأورثت الشقوات، وتمتعوا قليلا، وعذبوا طويلا، رتعوا مرتعا وخيما فأعقبهم عذابا أليما، أسكرتهم خمرة تلك الشهوات، فما استفاقوا منها إلا في ديار المعذبين، وأرقدتهم تلك الغفلة، فما استيقظوا منها إلا وهم في منازل الهالكين، فندموا والله أشد الندامة حين لا ينفع الندم، وبكوا على ما أسلفوه بدل الدموع بالدم، فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة، والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين أطباق الجحيم، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم، ويقال لهم وهم على وجوههم يسحبون: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ١٥ – ١٦]"(٢٧٠)

(٢٧٠) الجواب الكافي، لابن القيم صـ١٧١ باختصار وتصرف.

المسألة الثانية التحذير من مجالسة المردان من الولدان

من الأسباب الداعية لفاحشة اللواط إدامة النظر إلى المرادان من الولدان وكثرة مجالستهم، فإن ذلك مدعاة للوقوع في هذه الفاحشة؛ لهذا تشدد الإسلام في مسألة مجالسة المردان، قال شيخ الإسلام ابن تيمية:" وقد روي في ذلك أحاديث مسندة ضعيفة وحديث مرسل أجود منها، وهو ما رواه أبو محمد الخلال بسنده عن الشعبي قال:" قدم وفد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم غلام أمرد ظاهر الوضاءة فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم وراء ظهره وقال:" **كانت خطيئة داود في النظر** " وهذا حديث منكر، وأما المسندة، فمنها ما رواه ابن الجوزي بإسناده عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " **من نظر إلى غلام أمرد بريبة حبسه الله في النار أربعين عاما**"، وروى الخطيب البغدادي بإسناده عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " **لا تجالسوا أبناء الملوك؛ فإن الأنفس تشتاق إليهم ما لا تشتاق إلى الجواري العواتق**"' إلى غير ذلك من الأحاديث الضعيفة.

وجاء حسن بن الرازي إلى أحمد ومعه غلام حسن الوجه، فتحدث معه ساعة فلما أراد أن ينصرف قال له أحمد: يا أبا علي لا تمش مع هذا الغلام في طريق فقال: يا أبا عبد الله إنه ابن أختي قال: وإن كان، لا يأثم الناس فيك ، وقال ابن أبي الدنيا: لا تجالسوا أولاد الأغنياء فإن لهم صورا كصور

النساء وهم أشد فتنة من العذارى، وكان يقال: لا يبيت الرجل في بيت مع الغلام الأمرد، وقال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون مجالسة الأغنياء وأبناء الملوك وقال: مجالستهم فتنة إنما هم بمنزلة النساء، ويروى عن سفيان الثوري أنه قال: مع الجارية شيطان ومع الغلام شيطانان، وقال فتح الموصلي: صحبت ثلاثين شيخا كلهم أوصاني عند مفارقتي له: اتق صحبة الأحداث: اتق معاشرة الأحداث"[٢٧١].

قال الإمام النووي:" يحرم على الرجل النظر إلى وجه الأمرد إذا كان حسن الصورة، سواء كان نظره بشهوة أم لا، سواء أمن الفتنة أم خافها، هذا هو المذهب الصحيح المختار عند العلماء المحققين، نص عليه الشافعي، وحذاق أصحابه رحمهم الله تعالى، ودليله أنه في معنى المرأة فإنه يشتهى كما تشتهى، وصورته في الجمال كصورة المرأة، بل ربما كان كثير منهم أحسن صورة من كثير من النساء، بل هم في التحريم أولى لمعنى آخر، وهو أنه يتمكن في حقهم من طرق الشر ما لا يتمكن من مثله في حق المرأة والله أعلم" [٢٧٢]

وقال ابن حجر الهيثمي في كتابه الزواجر عن اقتراف الكبائر:" حرَّم كثير من العلماء الخلوة بالأمرد في نحو بيت أو دكان كالمرأة؛ لقوله صلى

([٢٧١]) مجموع الفتاوي، لابن تيمية٣/ ٣٨١، باختصار.

([٢٧٢]) شرح صحيح مسلم ، للنووي٢/٥٠.

الله عليه وسلم:" **ما خلا رجل بامرأة إلا دخل الشيطان بينهما** " [٢٧٣] بل في المرد من يفوق النساء بحسنه فالفتنة به أعظم؛ ولأنه يمكن في حقه من المجالسة ما لا يمكن في حق النساء، ويتسهل في حقه من طرق الريبة والشر ما لا يتيسر في حق المرأة فهو بالتحريم أولى، وأقاويل السلف في التنفير عنهم والتحذير من رؤيتهم أكثر من أن تحصر، وسموهم الأنتان؛ لأنهم مستقذرون شرعا وسواء في كل ما ذكر نظر المنسوب إلى الصلاح وغيره؛ وأنشدوا:

كل الحوادث مبدؤها من النظر... ومعظم النار من مستصغر الشرر

والمرء ما دام ذا عين يقلبها ... في أعين العين موقوف على الخطر

كم نظرة فعلت في قلب صاحبها.... فعل السهام بلا قوس ولا وتر

يسر ناظره ما ضر خاطره... لا مرحبا بسرور عاد بالضرر

وكان يقال: النظر بريد الزنا، وفي الحديث: " النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، من تركها من مخافتي أبدلته إيمانا يجد حلاوته في قلبه" [٢٧٤]، ومما روي: أن عيسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم مر في سياحته على

([٢٧٣])المعجم الكبير للطبراني برقم(٧٧٣٦)، ونص الحديث، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:" **إياكم والخلوة بالنساء، والذي نفسي بيده، ما خلا رجل وامرأة إلا دخل الشيطان بينهما، وليزحم رجل خنزيرا متلطخا بطين، أو حمأة خير له من أن يزحم منكبه منكب امرأة لا تحل له**"، وضعَّف الألباني الحديث في ضعيف الترغيب والترهيب برقم(١٢٠٠).

([٢٧٤]) رواه الحاكم في مستدركه برقم(٧٨٧٥)، وقال عنه: صحيح الإسناد،

نار تتوقد على رجل فأخذ ماء ليطفئها عنه فانقلبت النار صبيا وانقلب الرجل نارا، فتعجب عيسى من ذلك، فقال: يا رب ردهما إلى حالهما في الدنيا لأسألهما عن خبرهما فأحياهما الله تعالى فإذا هما رجل وصبي، فقال لهما عيسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم، ما خبركما وما أمركما؟ فقال الرجل: يا روح الله إني كنت في الدنيا مبتلى بحب هذا الصبي فحملتني الشهوة أن فعلت به الفاحشة فلما مِتُّ ومات الصبي صير الله الصبي نارا يحرقني مرة وصيرني نارا أحرقه أخرى فهذا عذابنا إلى يوم القيامة " [٢٧٥]

المسالة الثالثة: أضرار فاحشة اللوط

ولفاحشة اللواط أضرار كثيرة جدا، يقصر دونها العد والإحصاء، وهذه الأضرار متشعبة ومتنوعة، فله أضرار دينية، وخُلُقِيَّة، ونفسية، وصحية، وسوف نبين أهم هذه الأضرار في هذه المسألة على النحو التالي:

أولا: الأضرار الدينية

فاللواط كبيرة من كبائر الذنوب والمعاصي، قل الإمام ابن القيم وهو يتحدث عن فاحشة اللواط ومكانتها بين كبائر الذنوب والمعاصي:" وليس في المعاصي أعظم مفسدة من هذه المفسدة، وهي تلي مفسدة الكفر، وربما كانت

([٢٧٥]) الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيثمي ٣/ ٨٤ باختصار.

أعظم من مفسدة القتل، ولم يبتل الله تعالى بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحدا من العالمين، وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أحدا غيرهم، وجمع عليهم من أنواع العقوبات بين الإهلاك، وقلب ديارهم عليهم، والخسف بهم، ورجمهم بالحجارة من السماء، فنكل بهم نكالا لم ينكله أمة سواهم؛ وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد الأرض تميد من جوانبها إذا عُمِلت عليها، وتهرب الملائكة إلى أقطار السماوات والأرض إذا شاهدوها، خشية نزول العذاب على أهلها، فيصيبهم معهم، وتعج الأرض إلى ربها تبارك وتعالى، وتكاد الجبال تزول عن أماكنها، وقتل المفعول به خير له من وطئه، فإنه إذا وطئه قتله قتلا لا ترجى الحياة معه بخلاف قتله فإنه مظلوم شهيد، وربما ينتفع به في آخرته. [٢٧٦] .

ثانيا: الأضرار الصحية

أما أضرار اللواط الصحية، فحدث ولا حرج، فها هو الطب الحديث يكشف لنا بين الفينة والأخرى كارثة من كوارث الشذوذ الجنسي، وها هي وسائل الإعلام تطل علينا . من وقت لآخر بقارعة تحل بساحة الشذاذ، وما أن يجد الأطباء علاجا نافعا أو عقارا ناجعا لمرض من الأمراض إلا ويستجد مرض جديد يشغلهم عن المرض السابق، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

([٢٧٦]) الجواب الكافي، لابن القيم صـ ١٧٠،

حين قال:" **لم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا**" [٢٧٧]، وقد ذكر أهل الطب جملة من الأضرار الصحية الناجمة عن هذا العمل، ومن هذه الأضرار ما يلي:

١ . قلة الرغبة في النساء

فمن شأن اللواط أن يصرف الرجل عن النساء، وقد يبلغ به الأمر إلى حد العجز عن مباشرتها، وبذلك تتعطل أهم وظيفة من وظائف الزواج وهي إيجاد النسل، ولو قدر لمثل هذا الرجل أن يتزوج فإن زوجته تكون ضحية من الضحايا؛ فلا تظفر بالسكن، ولا بالمودة، ولا بالرحمة التي هي دستور الحياة، فتقضي حياتها معذبة معلقة، لا هي بالمتزوجة ولا بالمطلقة.

٢ . التأثير على أعضاء التناسل والإصابة بالعقم

بحيث يضعف مراكز الإنزال الرئيسية في الجسم، ويعمل على القضاء على الحيوانات المنوية، ويؤثر على تركيب مواد المني، ثم ينتهي الأمر بعد قليل من الزمن إلى عدم القدرة على إيجاد النسل، والإصابة بالعقم، مما يحكم على اللائطين بالانقراض والزوال، ويصاب بجمله من الأمراض منها: التهاب الشرج والمستقيم، وفطريات وطفيليات الجهاز التناسلي، الورم البلغمي الحبيبي التناسلي والتهاب الكبد الفيروسي

([٢٧٧]) رواه ابن ماجة (١٩ ٤٠) ، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١٠٦) .

٣ . ارتخاء عضلات المستقيم وتمزقه

فاللواط سبب في تمزق المستقيم، وهتك أنسجته، وارتخاء عضلاته، وسقوط بعض أجزائه، وفقد السيطرة على المواد البرازية، وعدم استطاعته القبض عليها، ولذلك تجد بعض أهل الواط دائمي التلوث بهذه المواد المتعفنة، بحيث تخرج منهم بدون شعور

٤ . عدم كفاية اللواط لإشباع العاطفة الجنسية

لأنها طريقة شاذة، وعلة دفينة، هي بعيدة الأصل عن الملامسة الطبيعية، ولا تقوم بإرضاء المجموع العصبي، بل هي شديدة الوطأة على الجهاز العضلي، سيئة التأثير على سائر أجزاء البدن[٢٧٨] .

المسألة الرابعة: بعض الأمراض التي يصاب بها أهل اللواط

يعاقب الله تعالى أهل اللواط بجملة من الأمراض المستعصية في الحياة الدنيا، ومن هذه الأمراض التي يصاب بها مرتكبي فاحشة اللواط ما يلي:

١ـ مرض الإيدز

ويقصد بمرض الإيدز(نقص المناعة المكتسبة) ذلك المرض الخطير الذي أصاب العالم عموما بسببه موجة من الذعر والرعب؛ ذلك أن الله . عز

([٢٧٨]) ينظر في ذلك: الإسلام والطب، للدكتور محمد وصفي صـ ١٢٠، ولا تقربوا الزنا، لمحمد عبد العزيز الهلاوي ص ٧٤ ، والأمراض الجنسية، لسيف الدين حسين شاهين ص ٨٩ ، والثقافة الجنسية د: هاني عرموش ١٢٥ . ١٣٠.

وجل أودع جسم الإنسان مناعة تضاد وتكافح مختلف الأمراض التي تغزوا الجسم، فإذا ما أصيب الإنسان بمرض الإيدز فإنه لا يكاد يحتمل مكافحة أدنى الأمراض، وربما قضى عليه أقل الأمراض ضررا؛ إذ تنهار لدى المصاب وسائل الدفاع التي أودعها الله جسمه، فيصبح بذلك نهبة سهلة لكل الجراثيم، وفريسة يسيرة لشتى الأمراض، أما أكثرية المصابين بهذا المرض فقد ذكر العلماء أن ٩٥ % من مرضى الإيدز هم ممن يمارسون اللواط، وقد ذكر العلماء المختصون بهذا المرض . أيضا . أن تسعة أعشار المصابين به يموتون خلال ثلاث سنوات من بداية المرض.

أما أكثر الناس عرضة لهذا المرض فهم الشباب، وأن ما بين ٩٠، ٧٥ % من الإصابة بفيروس نقص المناعة "الإيدز" تحدث من الذين تتراوح أعمارهم بين عشرين أو أربعين عاما" [٢٧٩].

٢ـ مرض الزهري

وهو من الأمراض المستعصية في عصرنا ويصاب به أهل الواط بدرجة رئيسية" وأما أعراضه فمنها ما يظهر على شكل تقرحات على الأعضاء التناسلية، ومنها ما يكون داخليا، فيظهر على كبد المريض، وأمعائه، ومعدته، وبلعومه، ورئتيه، وخصيتيه، وأما الآثار التي يتركها على قلب

([٢٧٩]) ينظر: مرض الإيدز الطاعون الجديد، د: لخالص جلبي ص ١٧١ . ١٩٤ الأمراض الجنسية عقوبة إلهية ، لسيف، الدين شاهين ص ٩٤

المريض وشرايينه وأعصابه فكبيرة ورهيبة، فهو يسبب الشلل، وتصلب الشرايين، والعمى، والذبحة الصدرية، والتشوهات الجسمية، وسرطان اللسان، والسل في بعض الأحيان.

وهذا المرض سريع العدوى، وانتشاره في العالم . عامة . وفي أوروبا وأمريكا . خاصة . ويزداد هذا المرض ويتضاعف يوما بعد يوم، فهو مرض خطير، وشره مستطير، قتل وسيقتل الملايين، ما داموا يعيشون الفوضى الجنسية ويلهثون وراء الفواحش زنا وبغاء وشذوذا [٢٨٠] .

٣ . مرض السيلان

وهو ثمرة من ثمرات الشذوذ الجنسي المنتنة، وينتقل هذا المرض نتيجة اتصال جنسي مباشر، ونكاح في فرج محرم، ولا يمكن أن ينتقل مطلقا إلى عفيف أو عفيفة "ويُعد السيلان من أكثر الأمراض المعدية انتشارا في الوقت الحاضر، وقد يصاب به ٢٠٠ . ٥٠٠ مليون شخص كل عام معظمهم في ريعان ويعتبر السيلان أكثر والأمراض الجنسية شيوعا في العالم، إذ يبلغ عدد المصابين به سنويا، حسب تقرير منظمة الصحة العالمية ٢٥٠ مليون شخص، وأكثر الناس عرضة لهذا المرض هم الشاذون جنسيا' وهذا المرض يحدث التهابات شديدة في الأعضاء التناسلية، يصحبه قيح وصديد كريه

([٢٨٠]) ينظر: الأمراض الجنسية، لسيف، الدين شاهين ص ٦٣ . ٧٥، والأمراض الجنسية د: نبيل الطويل ص ٣٨ . ٧٧، ، والانحرافات الجنسية وأمراضها د: فايز الحاج ص ١٤٣ . ١٥٦، والثقافة الجنسية، لهاني عرموش ص ١٠٥ .

الرائحة، ويعد هذا المرض من أهم الأسباب التي تؤدي بالمصاب إلى العقم، ويسبب . أيضا . ضيق مجرى البول، والتهاب القناة الشرجية، والتهاب الفم "البلعوم" كما أن المريض يشعر بضيق وحرقان عند البول، وتحمر المنطقة المحيطة بفتحة القضيب نتيجة الالتهاب، ويتقدم الالتهاب في الإحليل صعودا حيث يصل بعد ١٠ . ١٤ يوما إلى نهايته المتاخمة للمثانة، فتلتهب هي الأخرى، فيزداد الحرقان وألم التبول، ويصاحب ذلك صداع، وحمى، وإنهاك عام، ويمكن لجرثومة هذا المرض أن تصل إلى أي مكان في الجسم عندما تدخل الدورة الدموية، وحينئذ تسبب التهاب الكبد، والسحايا والتهابات أخرى في القلب وصماماته [٢٨١].

[٢٨١] ينظر في ذلك: الأمراض الجنسية أسبابها وعلاجها ص ٢٨٩، ولماذا حرم الله هذه الأشياء ص ١.٢٠ ، والأمراض الجنسية عقوبة إلهية ص ٥٣ .

المسألة الخامسة: عقوبة من عَمِلَ عَمَلْ قوم لوط

جريمة اللواط حكمها في شرع الله معلوم، فهي كبيرة من كبائر الذنوب، وقد عاجل الله تعالى قوم لوط بعقوبة معجَّلة في الحياة الدنيا، بسبب بعدهم عن طاعة ربهم، وممارستهم لفاحش اللواط التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، وقد قال الله تعالى في وصف هذا العذاب: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣ ﴾ [هود: ٨٢ –]

وقد اختلف أهل العلم من الفقهاء في عقوبة الفاعل والمفعول به في جريمة للواط، بعد اتفاقهم على تحريمه وأنه من الكبائر للأحاديث المتواترة في تحريمه ولعن فاعله، ومستندهم في ذلك حديث ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**" [٢٨٢]، وهنا نذكر أقوال الفقها بشيء من الاختصار الذي بما يتناسب مع منهجنا في هذا الكتاب.

فقد فذهب الشافعي في أظهر قوليه إلى أن حد فاعل اللواط حد الزنى أي إن كان محصنا يرجم، وإن لم يكن محصنا يجلد مائة وعلى المفعول به جلد مائة وتغريب عام رجلا كان أو امرأة محصنا كان أو غير محصن، واحتجَّ

([٢٨٢]) سنن ابي داوود برقم(٤٤٦٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم(٦٥٨٩).

الشافعي لهذا القول بأن التلوط نوع من أنواع الزنا؛ لأنه إيلاج فرج في فرج، فيكون الفاعل والمفعول به داخلين تحت عموم الأدلة الواردة في الزنا.

وذهب مالك وأحمد أنه يقتل الفاعل والمفعول به كما هو ظاهر حديث ابن عباس المشار إليه سابقا، وقد قيل في كيفية قتلهما هدم بناء عليهما، وقيل رميهما من شاهق كما فعل بقوم لوط.

وعند أبي حنيفة أن الفاعل والمفعول به في اللواط يعزر ولا يحد، واستدل على ذلك بما أخرجه البيهقي [٢٨٣] عن أبي بكر أنه جمع الناس في حق رجل ينكح كما ينكح النساء فسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فكان أشدهم يومئذ قولا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: هذا ذنب لم تعص به أمة من الأمم إلا أمة واحدة صنع الله بها ما قد علمتم نرى أن نحرقه بالنار فاجتمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أن يحرقه بالنار فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد يأمره أن يحرقه بالنار، قال المنذري حرَّق اللوطية بالنار أبو بكر وعلي وعبد الله بن الزبير وهشام بن عبد الملك"[٢٨٤].

([٢٨٣]) شعب الإيمان للبيهقي٤/ ٣٥٧ برقم(٣٥٧)، ذكره الألباني في صحيح الترغيب برقم(٢٤٢٤) دون الحكم عليه في هذا الموطن بالصحة أو الضعف، ولعله توقف في مسألة تصحيحه وتضعيفه.

([٢٨٤]) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي٧٧/٢١٧، و نيل الأوطار ، للشوكاني٧/ ١٦٧وأضواء البيان، للشنقيطي ١٩٣/٢وعون المعبود، في شرح سنن أبي داوود، للعظيم أبادي١٢/ ٩٩

ورجح العلامة ابن تيمية مذهب الرجم، حيث قال:" لم تختلف الصحابة فى قتله ولكن تنوعوا فيه، فروى عن الصديق رضى الله عنه انه أمر بتحريقه وعن غيره قتله وعن بعضهم أنه يلقى عليه جدار حتى يموت تحت الهدم وقيل يحبسان فى أنتن موضع حتى يموتا، وعن بعضهم أنه يرفع على أعلى جدار فى القرية ويرمى منه ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط، وهذه رواية عن ابن عباس والرواية الأخرى قال يرجم وعلى هذا اكثر السلف قالوا: لأن الله رجم قوم لوط وشرع رجم الزاني تشبيها برجم قوم لوط فيرجم الاثنان سواء كانا حُرَّين أو مملوكين، أو كان احدهما مملوكا والآخر حرا اذا كانا بالغين فان كان أحدهما غير بالغ عوقب بما دون القتل ولا يرجم إلا البالغ وما أحق مرتكب هذه الجريمة ومقارف هذه الرذيلة الذميمة في أي زمان ومكان بأن يعاقب عقوبة يصير بها عبرة للمعتبرين ويعذب تعذيبا بكسر شهرة الفسقة المتمردين، فحقيق بمن أتى بفاحشة قوم ما سبقهم بها من أحد من العالمين أن يصلى من العقوبة بما يكون في الشدة والشناعة مشابها لعقوبتهم وقد خسف الله تعالى بهم واستأصل بذلك العذاب بكرهم وثيبهم"[٢٨٥].

([٢٨٥]) فتاوي ابن تيمية ٢٨/٣٣٥.

المسألة السادسة: هل تقبل توبة من عمل عمل قوم لوط؟

للعلماء في قبول توبته قولين، ذكرهما الإمام ابن القيم، فمن أهل العلم من قال بقبول توبته، ومنهم من قال بعدم قبول توبته، قال ابن القيم معلقا على هذين القولين: " التحقيق في المسألة أن يقال: إن تاب المبتلى بهذا البلاء وأناب، ورزق توبة نصوحا وعملا صالحا، وكان في كبره خيرا منه في صغره، وبدل سيئاته بحسنات، وغسل عار ذلك عنه بأنواع الطاعات والقربات، وغضَّ بصره وحفظ فرجه عن المحرمات، وَصَدَق الله في معاملته، فهذا مغفور له وهو من أهل الجنة، فإن الله يغفر الذنوب جميعا، وإذا كانت التوبة تمحو كل ذنب، حتى الشرك بالله وقتل أنبيائه وأوليائه والسحر والكفر وغير ذلك، فلا تقصر عن محو هذا الذنب، وقد استقرت حكمة الله تعالى به عدلا وفضلا أن: التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وقد ضمن الله سبحانه لمن تاب من الشرك وقتل النفس والزنى، أنه يبدل سيئاته حسنات، وهذا حكم عام لكل تائب من ذنب [٢٨٦] ، وقد قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [

([٢٨٦]) يشير إلى قوله تعالى:" ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ الفرقان: ٦٨ - ٧٠

الزُّمَرِ: ٥٣]' فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد، ولكن هذا في حق التائبين خاصة.

وأما المفعول به إن كان في كبره شرا مما كان في صغره؛ لم يوفق لتوبة نصوح، ولا لعمل صالح، ولا استدراك ما فات، ولا أبدل السيئات بالحسنات، فهذا بعيد أن يوفق عند الممات لخاتمة يدخل بها الجنة، عقوبة له على عمله، فإن الله سبحانه وتعالى يعاقب على السيئة بسيئة أخرى، وتتضاعف عقوبة السيئات بعضها ببعض، كما يثيب على الحسنة بحسنة أخرى، إذا نظرت إلى حال كثير من المحتضرين وجدتهم يحال بينهم وبين حسن الخاتمة، عقوبة لهم على أعمالهم السيئة" (٢٨٧).

فحفظ الفرج من اللواط سبب من أسباب تزكية الأنفس، وذلك أن من فعل هذه الجريمة وما تاب إلى الله تعالى منه فقد انتكست فقطرته، وساءت حالته، إن لم يتداركه الله بعفوه ومغفرته.

---

(٢٨٧) الجواب الكافي، لابن القيم صـ ١٦٤.

السبب الرابع: حفظ الفرج من الاستمناء

ومن الأمور التي يجب على المسلم حفظها حفظ فرجه من "الإستمناء" وفي عصرنا الحديث يُعْرف بـ"العادة السرية"، والعرب تسمية بـ " جلد عميرة"[٢٨٨] وبـ "نكاح اليد" وإذا كانت فاحشتا الزنا وللواط من المحرمات القطعية التي دالت على تحريمها الأدلة الصحيحة والصريحة ولا مجال للأخذ والرد فيهما، فإن ممارسة هذه العادة مما وقع فيه نزاع بين أهل العلم، وبعد التأمل في أقوال أهل العلم في هذه المسألة وجدنا أن الإستمناء فيه قولان:

القول الأول: القائلون بتحريم الاستمناء

وهذا قول الشافعية والمالكية، ودليلهم في ذلك قوله الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ ﴾[المؤمنون: ٥ – ٧] قال الإمام الشافعي في بيان حكم هذه العادة:" في ذكر حفظهم لفروجهم إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم تحريم ما سوى الأزواج وما ملكت الأيمان، وبين أن الأزواج وملك اليمين من الآدميات دون البهائم ثم أكدها فقال عز

---

(٢٨٨) "جلد عميرة" كناية عن الاستمناء باليد، ينظر: معجم متن اللغة، لأحمد رضا ٤/ ٢٠٥.

وجل:﴿ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴾ فلا يحل العمل بالذكر إلا في الزوجة أو في ملك اليمين ولا يحل الاستمناء والله تعالى أعلم" [٢٨٩] .

قال محمد بن عبد الحكم: سمعت حرملة بن عبد العزيز قال: سألت مالكا عن الرجل يجلد عميرة، فتلا هذه الآية:﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ ﴾ [المؤمنون: ٥ – ٧]"[٢٩٠] ، قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى:" والذي يظهر لي أن استدلال مالك، والشافعي وغيرهما من أهل العلم بهذه الآية ، على منع الاستمناء باليد استدلال صحيح بكتاب الله، يدل عليه ظاهر القرآن، ولم يرد شيء يعارضه من كتاب ولا سنة"[٢٩١]، ومن أدلة المانعين حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**"[٢٩٢] قال الإمام ابن حجر في تعليقه على هذا الحديث: " واستدل به بعض المالكية على تحريم الاستمناء؛ لأنه

([٢٨٩]) ينظر: كتاب الأم، للشافعي ٥/ ٩٤، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، للرملي ١ / ٣١٢، وحاشية ابن عابدين ٢ / ١٠٠ الفقه على المذاهب الأربعة، لعد الرحمن الجزائري٥/ ٦٥

([٢٩٠]) تفسير القرطبي١٢/١٠٦

([٢٩١]) أضواء البيان ، للشنقيطي ٥/٣١٨.

([٢٩٢]) صحيح البخاري برقم(٤٦٧٧) وصحيح مسلم برقم(٢٤٨٥).

أرشد عند العجز عن التزويج إلى الصوم الذي يقطع الشهوة، فلو كان الاستمناء مباحا لكان الإرشاد إليه أسهل "[٢٩٣].

والقول بحرمة "الإستمناء" هو قول جماهير المفسرين، قال أهل التفسير:" وعامة العلماء على تحريمه، وقالوا: إنه كالفاعل بنفسه، وهي معصية أحدثها الشيطان وأجراها بين الناس حتى صارت قيلة، ويا ليتها لم تقل، ودليلهم في ذلك قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ ﴾ [المؤمنون: ٥ – ٧]، فقوله تعالى:﴿ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴾ أي: المجاوزون إلى ما لا يحل لهم، فسمى سبحانه من نكح ما لا يحل عاديا، ووراء هنا بمعنى: سوى وهو مفعول ابتغى، وقد دلت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة، واستدل بها بعض أهل العلم على تحريم الاستمناء لأنه من الوراء لما ذكر' ومما استدلوا به حديث مسلمة بن جعفر، عن حسان بن حميد، عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**سبعة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ويقول ادخلوا النار مع الداخلين، الفاعل والمفعول به، والناكح يده، وناكح البهيمة، وناكح المرأة**

([٢٩٣]) فتح الباري، لابن حجر ١٤/٢٩٣.

في دبرها وجامع بين المرأة وابنتها والزاني بحليلة جاره" [٢٩٤] وحديث مسلمة بن جعفر، عن حسان بن جميل، عن أنس بن مالك قال:" **يجيء الناكح يده يوم القيامة ويده حبلى**"[٢٩٥] والحديثان على ضعفهما يدلان على ظاهر القرآن في تحريم نكاح اليد والاستمناء بها" [٢٩٦].

وممن قال بتحريم الاستمناء شيخ الإسلام ابن تيمية إذا لم تقم حاجة تدعو إليه، حيث جاء في فتاويه أنه:" سئل رحمه الله تعالى عن الاستمناء هل هو حرام أم لا؟ فأجاب أما الاستمناء باليد فهو حرام عند جمهور العلماء، وأكثرهم لا يبيحونه لخوف العنت ولا غيره، ونقل عن طائفة من الصحابة والتابعين أنهم رخصوا فيه للضرورة، مثل أن يخشى الزنا فلا يعصم منه الا به، ومثل أن يخاف أن لم يفعله أن يمرض وهذا قول أحمد وغيره، وأما بدون الضرورة فما علمت أحدا رخص فيه والله أعلم " [٢٩٧].

([٢٩٤]) شعب الإيمان، للبيهقي برقم(٥٢٣٢)، بإسناد ضعيف؛ لأنه من طريق مسلمة بن جعفر عن حسان بن حميد عن أنس بن مالك: عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومسلمة وحسان مجهولان كما قال الحافظ ابن حجر في لسان الميزان ٦/ ٣٣.

([٢٩٥]) شعب الإيمان البيهقي برقم(٥٢٣٣)، وهو حديث ضعيف كالحديث السابق له للعلة نفسها.

([٢٩٦]) تفسير القرطبي١٠٦/١٢ وينظر: تفسير ابن كثير٤٦٣/٥، ضواء البيان ، للشنقيطي ٣١٨/٥، فتح القدير، للشوكاني ١٤٥/٥ باختصار، وللإمام الشوكاني رسالة لطيفة في هذا الباب تسمى بلوغ المنى في حكم الإستمناء.

([٢٩٧]) مجموع فتاوي ابن تيمية ٣٤/ ٢٢٩.

وممن قال بحرمة الاستمناء من المعاصرين الشيخ ناصر الدين الألباني حيث قال رحمه الله تعالى:" وأما نحن فنرى أن الحق مع الذين حرموا الاستمناء مستدلين بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ ﴾[المؤمنون: ٥ – ٧] ولا نقول بجوازه لمن خاف الوقوع في الزنا، إلا إذا استعمل الطب النبوي وهو قوله صلى الله عليه وسلم للشباب في الحديث المعروف الآمر لهم بالزواج:" **فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**" [٢٩٨]، ولذلك فإننا ننكر أشد الإنكار على الذين يفتون الشباب بجوازه خشية الزنى، دون أن يأمروهم بهذا الطب النبوي الكريم " [٢٩٩].

القول الثاني: القائلون بجواز الاستمناء

وهذا القول هو قول الأحناف، وقيد الحنفية الكراهة بالتحريم، حيث صرحوا بأنه مكروه تحريما، وأحمد بن حنبل يجوزه[٣٠٠]، ويحتج بأنه إخراج فضلة من

([٢٩٨]) صحيح البخاري برقم(٤٦٧٧) وصحيح مسلم برقم(٢٤٨٥).

([٢٩٩]) تمام المنة في التعليق على فقه السنة، للألباني ص:٤٢٠

([٣٠٠]) اشتهر عند أهل العلم من الفقهاء وغيرهم أن الإمام أنه يجيز الإستمناء مطلقا، والصحيح عند أحمد تحريمه إذا لم تدع الحاجة إليه، قال ابن قدامه:" ويحرم الاستمناء باليد؛ لأنها مباشرة تفضي إلى قطع النسل فحرمت كاللواط ولا حد فيه، لأنه لا إيلاج فيه فإن حشي الزنى أبيح له لأنه يروى عن جماعة من الصحابة" ينظر: الكافي في فقه الإمام أحمد ٤/ ١٦٦، وقال ابن تيمية:"

البدن فجاز عند الحاجة، أصله الفصد والحجامة وفي رواية وعطاء إلى أنه يكره، وقال أحمد في رواية نقلها ابن منصور: لا يعجبني بلا ضرورة" [٣٠١].

وقال ابن حزم :" إن الاستمناء مكروه ولا اثم فيه، لأن مس الرجل ذكره مباح بإجماع الأمه واذا كان مباحا فليس هناك زياده على المباح الا التعمد لنزول المنى: فليس ذلك حراما أصلا لقول الله تعالى:﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾[الأنعام: ١١٩] وليس هذا ما فصل لنا تحريمه، فهو حلال لقوله تعالى:﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[البقرة: ٢٩] وانما كره الاستمناء؛ لأنه ليس من مكارم الاخلاق ولا من الفضائل، وروى لنا ان الناس تكلموا فى الاستمناء فكرهته طائفة واباحته اخرى، وممن كرهه ابن عمر وعطاء، وممن اباحه ابن عباس والحسن وبعض كبار التابعين، وقال الحسن: كانوا يفعلونه فى المغازي، وقال مجاهد: كان من مضى يأمرون شبابهم بالاستمناء يستعفون بذلك، وحكم المرأة حكم الرجل فيه" [٣٠٢] .

أما الاستمناء باليد فهو حرام عند جمهور العلماء وهو أصح القولين فى مذهب أحمد " مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٤/ ٢٢٩.

([٣٠١]) ينظر في ذلك: المغني، لابن قدامة ٣ / ١١٣، والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، للمرداوي الدمشقي ١٠ / ٢٥١، وكشاف القناع عن متن الإقناع، للبهوتي ٦ / ١٢٥، تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج، لابن الملقن ١ / ٣٨٩، ، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، للزيلعي ١ / ٣٢٣، وفتح القدير، للكمال ابن الهمام ٢ / ٣٣٠، تفسير القرطبي١٢/١٠٦، فقه السنة، لسيد سابق ٢/ ٤٣٥.

([٣٠٢]) المحلى، لابن حزم ١١/٧٩٤.

وقال الشيخ الشنقيطي معلقا قول من يرون جواز الاستمناء:" وما روي عن الإمام أحمد مع علمه، وجلالته وورعه من إباحة الاستمناء مستدلا على ذلك بالقياس قائلا: هو إخراج فضلة من البدن تدعو الضرورة إلى إخراجها فجاز، قياسا على الفصد والحجامة فهو خلاف الصواب، وإن كان قائله في المنزلة المعروفة التي هو بها؛ لأنه قياس يخالف ظاهر عموم القرآن، والقياس إن كان كذلك رد بالقادح المسمى فساد الاعتبار، والله جل وعلا قال: والذين هم لفروجهم حافظون ولم يستثن من ذلك البتة إلا النوعين المذكورين، في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴾ وصرح برفع الملامة في عدم حفظ الفرج، عن الزوجة، والمملوكة فقط ثم جاء بصيغة عامة شاملة لغير النوعين المذكورين، دالة على المنع هي قوله: ﴿ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴾ وهذا العموم لا شك أنه يتناول بظاهره، ناكح يده، وظاهر عموم القرآن، لا يجوز العدول عنه، إلا لدليل من كتاب أو سنة، يجب الرجوع إليه، أما القياس المخالف له فهو فاسد الاعتبار، كما أوضحنا، والعلم عند الله تعالى" [٣٠٣].

وللعلامة ابن القيم تفصيل دقيق وتوجيه سديد في هذه المسألة والذي يظهر أنه القول الراجح في هذه المسألة حيث قال رحمه الله تعالى:" إذا قدر الرجل

([٣٠٣]) أضواء البيان، للشنقيطي ٣١٨/٥.

على التزوج أو التسري حرم عليه الاستمناء بيده، وإن لم يقدر على زوجة ولا سرية ولا شهوة له تحمله على الزنا حرم عليه الاستمناء، وإن كان مغلوبا على شهوته يخاف العنت كالأسير والمسافر والفقير، جاز له ذلك نص عليه أحمد رضي الله عنه، وروي أن الصحابة كانوا يفعلونه في غزواتهم وأسفارهم، وإن كانت امرأة لا زوج لها واشتدت غلمتها فقال بعض أصحابنا: يجوز لها ذلك. روى عن أحمد في رجل خاف ان تنشق مثانته من الشبق أو تنشق انثياه لحبس الماء قال يستخرجه بالإستمناء" [٣٠٤].

وبعد كل ما سبق من كلام الأئمة فإنه ينبغي علاج مسألة الاستمناء بشيء من الرفق واللين وعدم المبالغة والتشديد فيها لعدم ورود أدلة صريحة في المسألة، فهي مسألة اجتهادية ظنية وينبغي أن تثار الجوانب الإيمانية عند الناس؛ حتى تزكوا أنفسهم، فيبتعد عنها من ابتلي بها، وحثهم على البعد عن مواطن الفتن والشهوات، فإن علم من حاله أن منعه من هذه العادة قد يوقعه في الفاحشة فدفع أعظم المفسدتين بارتكاب أدناهما مطلب شرعي، والله الموفق. [٣٠٥].

([٣٠٤]) بدائع الفوائد، لابن القيم٤/ ٩٠٥ باختصار، وتصرف.

([٣٠٥]) الانتصار على العادة السرية، لرامي خالد عبد الله الخضر من صـ ٣ ـ٩باختصار وتصرف.

فحفظ الفرج من مواقعة الزنا أو اللواط أو الاستمناء من أسباب تزكية الأنفس وطهارتها من الفواحش والرذائل التي جاء الإسلام لتزكية أبناء الإسلام منها، ومن كل ما يؤدي إليها.

السبب الخامس: ترك عضل النساء

حرص الإسلام على الحفاظ على العلاقات الأسرية، وعمل على بقاء بيت الزوجية متماسكا أمام رياح وعواصف المشكلات الزوجية التي قد تحدث في كل بيت وأسرة، ومن هذه المشكلات التي قد تحدث، أن يقع الطلاق بين الزوجين، ثم يندم الرجل على فعلته ويذهب إلى أهل الزوجة نادماً وراغباً في إعادتها إلى عش الزوجية، هنا تأخذ العزة أهل الزوجة فيعضلونها ويمنعونها من العودة إلى زوجها، وهى راغبة في ذلك، فعالج الإسلام هذه المشكلة بطريقة تجعل من التزمها وعمل بها تزكوا نفسه ويصلح حاله، وعضل النساء الذي جاء ذكره في كتاب الله تعالى على نوعين سنتحدث عنهما في مسألتين على النحو التالي:

المسألة الأولى: عضل المرأة من قبل ولي أمرها

ويكون ذلك بمنعها من العودة إلى زوجها بعد طلاقها منه، قال تعالى:﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣٢] وسنقف عند هذه المسالة في أربع وقفات على النحو التالي:

الوقفة الأولى: العضل في اللغة

يعني الحبس والمنع ظلما، قال ابن منظور "عضل المرأة عن الزوج حبسها، وعضل الرجل أيمه يعضلها عضلا منعها من زوجها ظلما"[٣٠٦]

وجاء في معجم مقاييس اللغة:" العضل: والضاد واللام أصل صحيح يدل على شدة والتواء والامر ومن ذلك الداء العُضَال، والأمر المُعْضل، وهو الشديد الذي يعيي إصلاحه وتداركه، وعَضَلْتُ المرأة عضلا، إذا منعتها من التزوج ظلما"[٣٠٧].

قال الجصاص:" والعضل يعتوره معنيان: **أحدهما**: المنع، والآخر الضيق يقال: عضل الفضاء بالجيش إذا ضاق بهم، وفي التضييق يقال: عَضَلَت المرأة بولدها إذا عسر ولادها، والمعنيان متقاربان؛ لأن الأمر الممتنع يضيق فعله وزواله والضيق ممتنع أيضا"[٣٠٨]

الوقفة الثانية: سبب نزول هذه الآية

في سبب نزول الآية ثلاثة أقوال:

الأول: أنها نزلت في معقل بن يسار رضي الله عنه، حيث قال:" كنت زوجت أختا لي من رجل، فطلقها حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها، فقلت

---

(٣٠٦) لسان العرب، لابن منظور ١١/ ٤٥١.

(٣٠٧) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس ٤/ ٣٤٦.

(٣٠٨) أحكام القرآن، للجصاص ٢/٩٨.

له: زوجتك وأفرشتك وأكرمتك، فطلقتها ثم جئت تخطبها! لا والله، لا تعود إليها أبدا، قال: وكان رجلا لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله عز وجل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾ ، فقلت الآن أفعل يارسول الله، فزوجتها إياه"[٣٠٩] .

الثاني: أنها نزلت في جابر بن عبد الله الأنصاري، كانت له بنت عم فطلقها زوجها تطليقة فانقضت عدتها، ثم رجع يريد خطبتها فأبى جابر، وقال طلقت بنت عمنا و تريد أن تنكحها الثانية، وكانت المرأة تريد زوجها، فنزلت هذه الآية: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾ "[٣١٠].

([٣٠٩]) صحيح البخاري، برقم(٤٧٣٥).

([٣١٠]) ذكر هذا القول ابن كثير في تفسيره ١/ ٦٣٢، وقال: والصحيح الأول أي: حديث معقل بن يسار، وذكره الواحدي في أسباب النزول صـ ٨٤، وينظر: ز١د المسير، لابن الجوزي١/ ٢٣٢.

الثالث: وروي عن مجاهد وعكرمة أنهما قالا حول هذه الآية:" كان الرجل يطلق امرأته فيندم وتندم حتى يحب أن ترجع إليه وتحب هي ذلك فيأنف الولي، فأنزل الله عز وجل هذه الآية"[٣١١].

(٣١١) العجاب في بيان الأسباب، لابن حجر ١/ ٥٩٣.

الوقفة الثالثة: تفسير هذه الآية

للإمام الطبري كلام نفيس في تفسيره لهذه الآية نثبته هنا كاملا؛ لأهميته قال رحمه الله تعالى: ﴿ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ ﴾ لا تضيقوا عليهن بمنعكم إياهن أيها الأولياء من مراجعة أزواجهن بنكاح جديد، تبتغون بذلك مضارتهن، وأصل "**العضل**"، الضيق، ومنه أيضا الداء العضال وهو الداء الذي لا يطاق علاجه؛ لتجاوزه حد الأدواء التي يكون لها علاج، ومعنى قوله: ﴿إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ﴾أي: إذا تراضى الأزواج والنساء بما يحل، ويجوز أن يكون عوضا من أبضاعهن من المهور، وفي هذه الآية دلالة واضحة على صحة قول من قال:"**لا نكاح إلا بولي** "[٣١٢]، وذلك أن الله تعالى ذكره منع الولي من عضل المرأة إن أرادت النكاح ونهاه عن ذلك، فلو كان للمرأة إنكاح نفسها بغير إنكاح وليها إياها، أو كان لها تولية من أرادت توليته في إنكاحها لم يكن لنهي وليها عن عضلها معنى مفهوم، وذلك أنها إن كانت متى أرادت النكاح جاز لها إنكاح نفسها، أو إنكاح من توكله إنكاحها، فلا عضل هنالك لها من أحد فينهى عاضلها عن عضلها، وفي فساد القول بأن لا معنى لنهي الله عما نهى عنه، صحة القول بأن لولي المرأة في تزويجها حقا لا يصح عقده إلا به، وهو المعنى الذي أمر الله به الولي من تزويجها إذا خَطَبها خاطِبُها

([٣١٢]) صحيح أبي داوود، برقم(١٨١٨)، من حديث ابن عباس.

ورضيت به، وكان رضى عند أوليائها، جائزا في حكم المسلمين لمثلها أن تنكح مثله ونهاه عن خلافه من عضلها، ومنعها عما أرادت من ذلك، وتراضت هي والخاطب به، وقوله تعالى:﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ يعني تعالى ذكره بقوله ذلك، ما ذكر في هذه الآية: من نهي أولياء المرأة عن عضلها عن النكاح، يقول: فهذا الذي نهيتكم عنه من عضلهن عن النكاح، عظة مني لِمَن كان منكم يصدق بالله، فيوحده، ويقر بربوبيته:﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ يقول: ومن يؤمن باليوم الآخر، فيصدق بالبعث للجزاء والثواب والعقاب؛ ليتقي الله في نفسه، فلا يظلمها بضرار موليته ومنعها من نكاح من رضيته لنفسها، ممن أذنت لها في نكاحه، ومعنى قوله تعالى:﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ أي: نكاحهن أزواجهن، ومراجعة أزواجهن إياهن، بما أباح لهن من نكاح ومهر جديد ﴿ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾أي: أفضل وخير عند الله من فرقته أزواجهن﴿ وَأَطْهَرُ ﴾أي: أطهر لقلوبكم وقلوبهن وقلوب أزواجهن من الريبة؛ وذلك أنهما إذا كان في نفس كل واحد منهما أعني الزوج والمرأة علاقة حب، لم يؤمن أن يتجاوزا ذلك إلى غير ما أحله الله لهما، فأمر الله تعالى ذكره الأولياء إذا أراد الأزواج التراجع بعد البينونة، بنكاح مستأنف، في الحال أن لا يعضل وليته عما أرادت من ذلك، وأن يزوجها؛ لأن ذلك أفضل لجميعهم، وأطهر لقلوبهم مما يخاف سبوقه إليها من المعاني المكروهة.

ثم أخبر تعالى ذكره عباده أنه يعلم من سرائرهم وخفيات أمورهم ما لا يعلمه بعضهم من بعض، فقال تعالى:﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أي: أني أعلم بما في قلب الخاطب والمخطوب من غلبة الهوى والميل من كل واحد منهما إلى صاحبه بالمودة والمحبة، ففعلوا ما أمرتكم به، إن كنتم تؤمنون بي، وبثوابي وبعقابي في معادكم في الآخرة، فإني أعلم من قلب الخاطب والمخطوبة ما لا تعلمونه من الهوى والمحبة، وفعلكم ذلك أفضل لكم عند الله ولهم، وأزكى وأطهر لقلوبكم وقلوبهن في العاجل" [٣١٣] .

قال ابن عاشور معنى قوله تعالى:﴿ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ ﴾ أزكى دال على النماء والوفر، وذلك أنهم كانوا يعضلونهن حمية وحفاظا على المروءة، فأعلمهم الله أن عدم العضل أوفر للعرض؛ لأن فيه سعيا إلى استبقاء الود بين العائلات التي تقاربت بالصهر والنسب، وأما قوله:﴿وَأَطۡهَرُ ﴾ فهو معنى أنزه، أي أنه أقطع لأسباب العداوات والإحن والأحقاد، بخلاف العضل الذي قصدتم منه قطع العود إلى الخصومة، وماذا تضر الخصومة في وقت قليل يعقبها رضا ما تضر الإحن الباقية والعداوات المتأصلة، والقلوب المحرقة، [٣١٤].

([٣١٣]) تفسير الطبري٥/ ٢٤، باختصار وتصرف.

([٣١٤]) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٢/ ٤٢٨، باختصار.

الوقفة الرابعة: إلى من يتوجه الخطاب في قوله تعالى:﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ ؟

اختلف المفسرون في الخطاب في قوله تعالى:﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ إلى من يتوجه، على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه خطاب للأولياء في عضلهن أن يرجعن إلى أزواجهن الذين كانوا أزواجا لهن، وهذا القول هو مذهب جماهير المفسرين، وقد رجَّح هذا القول الإمام الطبري حيث قال:" والصواب من القول في هذه الآية أن يُقال: إن الله تعالى ذكره أنزلها دلالة على تحريمه على أولياء النساء عضلهن عمن أردن نكاحه من أزواج كانوا لهن، فبن منهن بما تَبِيْنُ به المرأة من زوجها من طلاق أو فسخ نكاح"[٣١٥].

وتابع الإمام الطبري في ترجيح هذا لقول جماهير المفسرين وعلى رأسهم الإمام القرطبي[٣١٦]، والإمام ابن الجوزي [٣١٧]، ورجح هذ القول الإمام ابن حجر[٣١٨] والذي يظهر أن هذا لقول هو الراجح؛ لأن سبب النزول الذي

([٣١٥]) تفسير الطبري٥/ ٢٣.

([٣١٦]) تفسير القرطبي ٣/ ١٥٩.

([٣١٧]) زاد المسير، لا بن الجوزي١/ ٢٣٢،

([٣١٨]) فتح الباري، لابن حجر ١٤/٣٨٤.

نزلت فيه الآية واضح وهو قصة معقل بن يسار مع أخته التي منع إرجاعها إلى زوجها الذي طلقها، كما بينا ذلك سابقا.

القول الثاني: أن الخطاب في الآية للأزواج، ومعنى العضل منهم أن يمنعوهن من أن يتزوجن من أردن من الأزواج بعد انقضاء عدتهن؛ لحمية الجاهلية، وقد يكون عضل الزوج لزوجته بأن يرسل إلى من يخطبها ما يخيفه أو ينسب إليها ما ينفر الرجل من الرغبة فيهن، ورجح هذ القول الإمام أبو حيان ، ونصره الإمام الرازي حيث

قال:" اختلف المفسرون في أن قوله: ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ خطاب لمن؟ فقال الأكثرون إنه خطاب للأولياء، وقال بعضهم إنه خطاب للأزواج ، وهذا هو المختار، والذي يدل عليه أن قوله تعالى:﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ جملة واحدة مركبة من شرط وجزاء، فالشرط قوله تعالى:﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ والجزاء قوله : ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ ولا شك أن الشرط وهو قوله تعالى:﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ خطاب مع الأزواج، فوجب أن يكون الجزاء هو قوله تعالى:﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ خطابا معهم أيضا، إذ لو لم يكن كذلك لصار تقدير الآية: إذا طلقتم النساء أيها الأزواج ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ أيها الأولياء، وحينئذ لا يكون بين الشرط وبين الجزاء مناسبة

أصلا؛ وذلك يوجب تفكك نظم الكلام وتنزيه كلام الله عن مثله واجب، فإذا جعلنا الخطاب في الآية للأولياء لم يحصل فيه مثل هذا الترتيب الحسن اللطيف، فكان صرف الخطاب إلى الأزواج أولى [٣١٩]، وقد تعقب هذ القول الإمام ابن حجر ورد عليه بقوله:" ولا يمنع ذلك كون ظاهر الخطاب في السياق للأزواج حيث وقع فيه قوله تعالى:﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾، لكن قوله تعالى في بقيته ﴿ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ ﴾ظاهر في أن العضل يتعلق بالأولياء، فيستدل في كل مكان بما يليق به"[٣٢٠].

القول الثالث: أن الخطاب في الآية متوجه لجميع الناس، فيتناول عضل الأزواج والأولياء جميعا[٣٢١]، قال أبو السعود: "وإما كون الخطاب في الآية للناس كافة، فإن إسناد ما فعله واحد منهم إلى الجميع شائع مستفيض، والمعنى: إذا وجد فيكم طلاق فلا يقع فيما بينكم عضل سواء كان ذلك من قبل الأولياء أو من جهة الأزواج، وفيه تهويل لأمر العضل وتحذير منه وإيذان بأن وقوع ذلك بين ظهرانهم وهم ساكتون عنه بمنزلة صدوره عن الكل في استتباع اللاَّئِمَة وسرابة الغائلة "[٣٢٢].

([٣١٩]) تفسير الرزي ٣/٣٤٣، وينظر: تفسير أبي حيان ٢/ ٤٩٣، وتفسير القرطبي ٢/١٥٩ ، وتفسير الشوكاني ١/٣٢٧، وتفسير الألوسي١/٥٣٨.

([٣٢٠]) فتح الباري، لا بن حجر،١٤/ ٣٨٤ .

([٣٢١]) ينظر: الكشاف، للزمخشري١/١٤٠، روح المعاني، للألوسي٢/١٤٤.

([٣٢٢]) تفسير أبي السعود ١/ ٢٨٩.

وقال ابن عاشور:" والخطاب في قوله تعالى:﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ موجه إلى جميع المسلمين؛ لأن كل واحد صالح لأن يقع منه الطلاق إن كان زوجا، ويقع منه العضل إن كان وليا، والمراد بقوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ الأزواج، و والمراد بقوله ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾النهي عن صدور العضل، وهم أولياء النساء،[٣٢٣].

والذي يظهر أن القول الأول هو الراجح، وهو الذي رجحه الأمام الطبري وغيره من المفسرين، ومما يؤيد هذا القول أنه قد وردت آية أخرى تتحدث عن العضل من قبل الأزواج لزوجاتهم، وهو ما سنتناوله في المسألة الثانية التالي.

المسألة الثانية: عضل المرأة من قبل زوجها

قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ١٩]

([٣٢٣]) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٢/ ٤٢٦.

في المسالة السابقة وقفتا عند الحالة الأولى من حالات العضل التي تقع على المرأة، وهي عضلها من قبل وليها، وفي هذه المسألة سوف نقف عند الحالة الثانية من حالات العضل، وهى الحالة التي يكون فيها العضل من جهة الزوج، وسوف نقف عند هذه المسالة في ثلاث وقفات، على النحو التالي:

الوقفة الأولى: سبب نزول هذه الآية

قال ابن عباس في هذه الآية:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ ﴾ كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، وهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك"[٣٢٤].

وقيل: كان أهل المدينة في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا مات الرجل وله امرأة، جاء ابنه من غيرها أو قريبه من عصبته، فألقى ثوبه على تلك المرأة فصار أحق بها من نفسها ومن غيره، فإن شاء أن يتزوجها تزوجها بغير صداق إلا الصداق الذي أصدقها الميت، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها

([٣٢٤]) صحيح البخاري برقم(٤٢١٣)، وينظر أسباب النزول، للواحدي صـ ١٥١.

ولم يعطها شيئا، وإن شاء عضلها وضارها لتفتدي منه بما ورثت من الميت، أو تموت هي فيرثها، فتوفي أبو قيس بن الأسلت الأنصاري، وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية، فقام ابن له من غيرها يقال له: حصن، فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها، ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها، يضارها لتفتدي منه بمالها، فأتت كبيشة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله، إن أبا قيس توفي وورث ابنه نكاحي، وقد أضر بي وطول علي، فلا هو ينفق علي ولا يدخل بي، ولا هو يخلي سبيلي، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**اقعدي في بيتك حتى يأتي فيك أمر الله**"، قال: فانصرفت، وسمعت بذلك النساء في المدينة، فأتين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلن: ما نحن إلا كهيئة كبيشة غير أنه لم ينكحنا الأبناء، ونكحنا بنو العم. فأنزل الله تعالى هذه الآية [٣٢٥].

الوقفة الثانية: معنى هذه الآية

قال الإمام الطبري: يعني تبارك وتعالى بقوله:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾أي: ياأيها الذين صدقوا الله ورسوله ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ ﴾ أي: لا

([٣٢٥]) ينظر: العجاب في بيان الأسباب ، لابن حجر ٢/ ٨٤٩، ولباب النقول، للسيوطيً . صـ ٥٥ وتفسير الثعلبي صـ ٥٧٥.

يحل لكم أن ترثوا نكاح نساء أقاربكم وآبائكم كرها، وذلك أنهن في الجاهلية كانت إحداهن إذا مات زوجها، كان ابنه أو قريبه أولى بها من غيره، إن شاء نكحها، وإن شاء عضلها فمنعها من غيره ولم يزوجها حتى تموت، فحرَّمَ الله تعالى ذلك على عباده، وحظر عليهم نكاح حلائل آبائهم، ونهاهم عن عضلهن عن النكاح.

وأما قوله تعالى:﴿ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ ﴾، فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله، فقال ابن عباس والحسن البصري:﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ أي: ولا تحبسوا، يا معشر ورثة من مات من الرجال، أزواجهم عن نكاح من أردن نكاحه من الرجال، حتى يَمُتن﴿ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ ﴾، أي: فتأخذوا من أموالهن إذا متن، ما كان موتاكم الذين ورثتموهم ساقوا إليهن من صدقاتهن، وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولا تعضلوا، أيها الناس، نساءكم فتحبسوهن ضرارا، ولا حاجة لكم إليهن، فتضروا بهن ليفتدين منكم بما آتيتموهن من صدقاتهن، وقال آخرون: المَعْنِي بالنهي عن عضل النساء في هذه الآية: أولياؤهن.

وأولى هذه الأقوال التي ذكرناها بالصحة في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ ﴾ قول من قال: نهى الله جل ثناؤه زوج المرأة عن التضييق عليها والإضرار بها، وهو لصحبتها كاره ولفراقها محب، لتفتدي منه ببعض ما آتاها من الصداق.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصحة؛ لأنه لا سبيل لأحد إلى عضل امرأة، إلا لأحد رجلين: إما لزوجها بالتضييق عليها وحبسها على نفسه وهو لها كاره، مضارة منه لها بذلك، ليأخذ منها ما آتاها بافتدائها منه نفسها بذلك أو لوليها الذي إليه إنكاحها، وإذا كان لا سبيل إلى عضلها لأحد غيرهما، وكان الولي معلوما أنه ليس ممن أتاها شيئا فيقال إن عضلها عن النكاح:" عضلها ﴿لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ ، كان معلوما أن الذي عنى الله تبارك وتعالى بنهيه عن عضلها، هو زوجها الذي له السبيل إلى عضلها ضرارا لتفتدي منه.

فقوله تعالى:﴿ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ أي: لا يحل لكم، أيها المؤمنون، أن تعضلوا نساءكم ضرارا منكم لهن، وأنتم لصحبتهن كارهون، وهن لكم طائعات، لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن من صدقاتهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة"، فيحل لكم حينئذ الضرار بهن ليفتدين منكم[٣٢٦]

الوقفة الثالثة: المراد بالفاحشة في الآية

اختلف أهل التفسير في معنى "الفاحشة" التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ على قولين.

([٣٢٦]) تفسير الطبري ٨/ ١١٣ باختصار وتصرف.

القول الأول: المراد بالفاحشة الزنا

قال بهذا القول ابن مسعود، وابن عباس وغيرهما، والمعنى: إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها وتضاجرها حتى تتركه لك وتخالعها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٢٩] ، والزنا أصعب على الزوج من النشوز والأذى، وكل ذلك فاحشة تحل أخذ المال، وذهب أبو علي الجبائي وأبو مسلم أن هذا متعلق بالعضل بمعنى الحبس والإمساك، ولا تعرض له بأخذ المال ففيه إباحة الحبس لهن إذا أتين بفاحشة وهي الزنا أوالسحاق[٣٢٧] .

القول الثاني المراد بالفاحشة النشوز

وقال بهذا القول ابن عباس، وعكرمة، فقد كانت المرأة إذا أصابت فاحشة، أخذ زوجها ما ساق إليها، وأخرجها، ومن أهل العلم من يجيز أخذ المال من الناشز على جهة الخلع، إلا أنه يرى أَلاَّ يتجاوز ما أعطاها؛ ركونا إلى قوله تعالى:﴿ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ وقال مالك وجماعة من أهل العلم: للزوج أن يأخذ من الناشز جميع ما تملك، وفي الآية إباحة الخلع عند

([٣٢٧]) تفسير القرطبي٥/٩٥، وزاد المسير، لابن الجوزي ٢/ ٦، وتفسير الألوسي٣/٤٨٣

النشوز؛ لقيام العذر بوجود السبب من جهتهن، وحكي عن الأصم أن إباحة أخذ المال منهن كان قبل الحدود عقوبة لهن، وقال قوم: الفاحشة البذاءة باللسان، وسوء العشرة قولا وفعلا [٣٢٨].

قال الإمام الطبري: وأولى ما قيل في تأويل قوله تعالى:﴿ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ ﴾ أنه يعنى به كل فاحشة، من بذاء باللسان على زوجها، وأذى له، وزنا بفرجها، وذلك أن الله جل ثناؤه عمَّ بقوله تعالى:﴿ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ ﴾، كل فاحشة مُتَبَيَّنة ظاهرة، فكل امرأة أتت بفاحشة من الفواحش التي هي زنا أو نشوز، فله عضلها ، والتضييق عليها حتى تفتدي منه، وقد وصحَّ بذلك الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعن جابر ابن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، وإن لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف**[٣٢٩]، فأخبر صلى الله عليه وسلم أن من حق الزوج على المرأة أن لا توطئ فراشه أحدا، وأن لا تعصيه في معروف، وأن الذي يجب لها من الرزق والكسوة عليه، وإنما هو واجب عليه إذا أدت هي إليه ما يجب عليها من الحق،

([٣٢٨]) تفسير ابن كثير ٢/٢٤١، تفسير ابن عطية٢/٢٨. وفتح القدير، للشوكاني٢/١٠٦

([٣٢٩]) صحيح أبي داوود، للألباني، برقم(١٦٧٦).

بتركها إيطاء فراشه غيره، وتركها معصيته في معروف، فَبَيَّنَ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن لزوج المرأة إذا أمكنت من جماعها سواه، أن له منعها الكسوة والرزق بالمعروف، وهذا داخل في استثناء الله تبارك وتعالى الذي استثناه من العاضلين في قوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ ومعنى الآية: ولا يحل لكم، أيها الذين آمنوا، أن تعضلوا نساءكم فتضيقوا عليهن وتمنعوهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن من صدقاتكم، إلا أن يأتين بفاحشة من زنا أو بذاء عليكم، وخلاف لكم فيما.

قال الشيخ الشعراوي في تفسيره قوله تعالى:﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ :" الحق يأمرنا أننا يجب أن ننتبه إلى المعاشرة بالمعروف في الحياة الزوجية،ثم قال:﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ ﴾ فاطمئن إنك إن كرهت في المرأة شيئا لا يتعلق بِدِيْنِهاَ، فاعلم أنك إن صبرت عليها يجعل الله لك في بقية الزوايا خيرا كثيرا، وما دام ربنا هو من يجعل هذا الخير الكثير فاطمئن إلى أنك لو تنبهت لزاوية أنت تكرهها ومع ذلك تصبر عليها ، فأنت تضمن أن ربنا سيجعل لك خيرا في نواح متعددة، إن أي زاوية تغلبت على كرهك سيجعل الله فيها خيرا كثيرا، ثم قال سبحانه وتعالى:﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ إن الحق يطلق القضية هنا في بناء الأسرة ثم يُعَمِمْ، وكان

بإمكانه أن يقول: فعسى أن تكرهوهن ويجعل الله فيهن خيرا، لا فقد شاء أن يجعلها سبحانه قضية عامة في كل شيء قد تكرهه، وتأتي الأحداث لتبين صدق الله في ذلك، فكم من أشياء كرهها الإنسان ثم تبين له وجه الخير فيها، وكم من أشياء أحبها الإنسان ثم تبين له وجه الشر فيها، ليدلك على أن حُكْمَ الإنسان على الأشياء دائما غير دقيق، فقد يحكم بكره شيء وهو لا يستحق الكره، وقد يحكم بحب شيء وهو لا يستحق الحب فالحق سبحانه وتعالى يأتي بالأشياء مخالفة لأحكامك ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ فقدر دائما في المقارنة أن الكُرْهَ منك وجعل الخير في المرأة من الله، فلا تجعل جانب الكره منك يتغلب على جانب جعل الخير من الله"[٣٣٠]. فعدم عضل النساء سواءً من قبل وليها أو من قبل زوجها سبب من أسباب تزكية الأنفس؛ لأن هذا الحكم أنزله الله تعالى الذي يعلم طبيعة النفس الإنسانية وأسرارها، وصدق الله القائل، تعقيباً على آية عضل النساء: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

([٣٣٠]) تفسير الشعراوي صـ١٤١٨، باختصار وتصرف.

السبب السادس: ترك أكل الحرام

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذ السبب في سورة الكهف، عندما أرسل أصحاب الكهف أحدهم إلى السوق ليأخذ لهم طعاما، فطلبوا منه أن يأخذ لهم بالطعام الزاكي الحلال، قال الله تعالى حكاية عنهم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الكهف: ١٩]

قال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:" وكما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهيئاتهم شيئا، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين؛ ولهذا تساءلوا بينهم:﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾؟ أي: كم رقدتم؟ ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ ﴾ كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار، واستيقاظهم، كان في آخر نهار؛ ولهذا استدركوا فقالوا:﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ أي: الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ ﴾ أي: فِضَّتكم هذه،﴿ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ أي: مدينتكم التي خرجتم منها والألف واللام للعهد، ﴿ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ

﴿ أَزۡكَىٰ طَعَامًا ﴾ أي: أطيب طعاما، وقيل: أكثر طعاما، ومنه زكاة الزرع إذا كثر، والصحيح الأول؛ لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال، سواء كان قليلا أو كثيرا. " [٣٣١].

ووافق الشيخ الشنقيطي الإمام ابن كثير في ترجيحه للقول الأول حيث قال: " فاللائق بحال هؤلاء الفتية الأخيار المتقين أن يكون مطلبهم في مأكلهم الحِلْ والطهارة لا الكثرة، وقد قال بعض العلماء: إن عهدهم بالمدينة فيها مؤمنون يَخْفُونَ إيمانهم وكافرون، وأنهم يريدون الشراء من طعام المؤمنين دون الكافرين، وإن ذلك مرادهم بالزكاة في قوله: ﴿ أَزۡكَىٰ طَعَامًا ﴾ " [٣٣٢].

وللمفسرين بالمراد بالطعام الزكي المذكور في قول الفتية، أقوالا سته ذكرها الإمام ابن الجوزي في تفسيره: **أحدها**: أحل ذبيحة؛ قاله ابن عباس وعطاء؛ وذلك أن عامة أهل بلدهم كانوا كفارا، فكانوا يذبحون للطواغيت، وكان فيهم قوم يخفون إيمانهم، **والثاني**: أحل طعاما، قاله سعيد بن جبير، قال الضحاك: وكانت أكثر أموالهم غصوبا، وقال مجاهد: قالوا لصاحبهم لا تبتع طعاما فيه ظلم ولا غصب، **والثالث**: أكثر، قاله عكرمة، **والرابع**: خير، أي: أجود، قاله قتادة، **والخامس**: أطيب، قاله ابن السائب، ومقاتل، **والسادس**:

([٣٣١]) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٥ باختصار.

([٣٣٢]) أضواء البيان، للشنقيطي٣/ ٣٠٠.

أرخص، قاله يمان بن رياب" [٣٣٣]. وقيل إن ذلك الطعام الأرز. وقيل: " كان زبيبا. وقيل: تمرا، والله أعلم" [٣٣٤].

والذي يظهر أن جميع الأقوال متقاربة وكلها محتملة في بيان معنى الآية.

ولأهمية أكل الحلال الطيب في تزكية النفس أمر الله بذلك خيرة عبادة من الأنبياء والمرسلين فقال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ [المؤمنون : ٥١] قال الإمام الرازي في تفسير هذه الآية:" قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ ففيه وجهان: **الأول**: أنه الحلال، وقيل طيبات الرزق حلال وصاف وقوام، فالحلال الذي لا يعصى الله فيه، والصافي الذي لا ينسى الله فيه والقوام ما يمسك النفس ويحفظ العقل **والثاني**: أنه المستطاب المستلذ من المأكل والفواكه، فبين تعالى أنه وإن ثقل عليهم بالنبوة وبما ألزمهم القيام بحقها، فقد أباح لهم أكل الطيبات كما أباح لغيرهم، واعلم أن تقديم قوله:﴿ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ على قوله: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ كالدلالة على أن العمل الصالح لا بد وأن يكون مسبوقا بأكل الحلال، أما قوله:﴿ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ فهو تحذير من مخالفة ما أمرهم به وإذا كان ذلك تحذيرا للرسل مع علو شأنهم فبأن يكون تحذيرا لغيرهم أولى" [٣٣٥].

([٣٣٣]) زاد المسير، لابن الجوزي ٤/ ٢١٢.

([٣٣٤]) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٧٥.

([٣٣٥]) تفسير الرازي ١١/ ١٨٩ باختصار.

والله تعالى يأمر عباده المؤمنين بما أمر به أنبياءه ورسله، بتحري أكل الحلال؛ لما له من تأثير في تزكية أنفسهم، ويَبَّنَ الله لهم أن ذلك من مقتضيات عبادتهم له سبحانه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢]، قال سيد قطب عند هذه الآية:" إن الله ينادي الذين آمنوا بالصفة التي تربطهم به سبحانه، وتوحي إليهم أن يتلقوا منه الشرائع؛ وأن يأخذوا عنه الحلال والحرام، ويذكرهم بما رزقهم فهو وحده الرازق، ويبيح لهم الطيبات مما تزكو به أنفسهم؛ فيشعرهم أنه لم يمنع عنهم طيبا من الطيبات، وأنه إذا حرم عليهم شيئا فلأنه غير طيب، لا لأنه يريد أن يحرمهم ويضيق عليهم، وهو الذي أفاض عليهم الرزق ابتداء، ويوجههم للشكر إن كانوا يريدون أن يعبدوه وحده بلا شريك، فيوحي إليهم بأن الشكر عبادة وطاعة يرضاها الله من العباد، كل أولئك في آية واحدة قليلة الكلمات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾"[٣٣٦].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **يا أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين**، فقال:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ

([٣٣٦]) في ظلال القرآن، لسيد قطب ١/١٢٧.

صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ [المؤمنون : ٥١]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾، ثم ذكر: **الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، فأنى يستجاب لذلك** "[٣٣٧] ، قال الإمام النووي في شرحه لهذ الحديث:" وهذا الحديث أحد الأحاديث التي هي من قواعد الإسلام ومباني الأحكام، وفيه: الحث على الإنفاق من الحلال، والنهي عن الإنفاق من غيره، وفيه: أن المشروب والمأكول والملبوس ونحو ذلك ينبغي أن يكون حلالا خالصا لا شبهة فيه، وأن من أراد الدعاء كان أولى بالاعتناء بذلك من غيره" [٣٣٨].

ومن آثار أكل الطعام الحلال الطيب، على تزكية النفس أنه يجعل صاحبها مجاب الدعاء، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال تليت هذه الآية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ ﴾[البقرة: ١٦٨]، قام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم:" **يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده إن العبد ليقذف اللقمة الحرام**

([٣٣٧]) صحيح مسلم برقم(١٦٨٦).

([٣٣٨]) شرح صحيح مسلم، للنووي٣/٤٥٧.

في جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوما، وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به" [٣٣٩]

والملاحظ أن هؤلاء الفتية رغم ما أصابهم من جوع شديد، بسبب طول الفترة التي قضوها بلا طعام ولا شراب، كل هذ لم يجعلهم يتساهلوا في مسألة الحصول على طعام، فقد كانوا حريصين على التحري والبحث عن الطعام الحلال الطيب الزاكي؛ وذلك بسبب ورعهم وخوفهم من الله تعالى، ورغبة منهم في تزكية أنفسهم وصلاحها، وذلك أن أكل الحلال وسيلة من وسائل تزكية النفس، فعلى المؤمن الصادق في إيمانه تحري الحلال في مطعمه ومشربه؛ حتى تزكوا نفسه ويصلح مع الله حاله.

([٣٣٩]) ضعيف الترغيب والترهيب، للألباني، برقم(١٠٧١).

المبحث الثالث: ثمار التزكية

ذكر الله في كتابه الكريم جملة من ثمار التزكية، يحصل عليها من عمل على تزكية نفسه، وهذه الثمار متنوعة، منها ثمرات عاجلة في الدنيا، ومنها ثمار آجله في الآخرة، قال الإمام الراغب الأصفهاني:" وبزكاء النفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة في الدنيا، وفي الآخرة الأجر والمثوبة، وهو أن يتحرى الإنسان ما فيه تطهيره"[٣٤٠]، ويمكن إجمال أهم ثمار التزكية في ثلاثة ثمار على النحو الآتي:

الثمرة الأولى: الفوز والفلاح

الثمرة الثانية: النجاة من النار

الثمرة الثالثة: الفوز بالجنة

([٣٤٠]) المفردات في غريب القرآن، للراغب الاصفهاني صـ ٣٨١.

الثمرة الأولى: الفوز والفلاح

قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[الشمس: ٩ – ١٠]، قال ابن كثير" يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى نفسه، أي: بطاعة الله كما قال قتادة وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ أي: أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى، حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله عز وجل.

يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى الله نفسه، وقد خاب من دسَّى الله نفسه، كما قال العوفي وعلي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، و عن زيد بن أرقم قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "**اللهم، إني أعوذ بك من العجز والكسل والهرم، والجبن والبخل وعذاب القبر اللهم، آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم، إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، وعلم لا ينفع، ودعوة لا يستجاب لها**" [٣٤١]. قال زيد: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمناهن ونحن نعلمكوهن" [٣٤٢].

([٣٤١]) صحيح مسلم برقم(٤٨٩٩).

([٣٤٢]) تفسير ابن كثير ٨/ ٤١١ باختصار

وقال الإمام البقاعي: معنى قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ أي: ظفر بجميع المرادات ﴿ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ أي نماها وأصلحها وصفاها تصفية عظيمة بما يسره الله له من العلوم النافعة والأعمال الصالحة وطهرها على ما يسره لمجانبته من مذام الأخلاق؛ لأن كُلاً مُيَسَّر لما خلق له، والدين بني على التحلية والتخلية و"**زكَّى**" صالح للمعنيين ﴿ وَقَدْ خَابَ ﴾ أي حرم مراده مما أعد لغيره في الدار الآخرة وخسر وكان سعيه باطلا ﴿ مَن دَسَّىٰهَا ﴾أي أغواها إغواء عظيما وأفسدها ودنس محياها وقذرها وحقرها وأهلكها بخبائث الاعتقاد ومساوئ الأعمال، وقبائح النيات والأحوال، وأخفاها بالجهالة والفسوق، والجلافة والعقوق، " (٣٤٣).

وقال العلامة ابن القيم:" المعنى: قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله، وأظهرها، وقد خاب وخسر من أخفاها، وحقرها وصغرها بمعصية الله وأصل التدسية: الإخفاء. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل: ٥٨ – ٥٩] فالعاصي يدس نفسه بالمعصية، ويخفي مكانها، ويتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به، قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق، فالطاعة والبر تُكَبِّر النفس وتعزها

---

(٣٤٣) نظم الدرر، للبقاعي ٢٢/ ٨٠ باختصار.

وتعليها؛ حتى تصير أشرف شيء وأكبره، وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى، وبهذا الذل لله حصل لها العز والشرف والنمو، فما صغر النفس مثل ومعصيته الله، وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله" (٣٤٤).

وقال سيد قطب وهو يتحدث عن سر القسم في سورة الشمس التي جاء فيها الحديث عن تزكية النفس، قال رحمه الله تعالى: " تجيء الحقيقة الكبرى عن النفس البشرية في سياق هذا القسم، مرتبطة بالكون ومشاهده وظواهره، وهي إحدى الآيات الكبرى في هذا الوجود المترابط المتناسق: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧ – ١٠]، وهذه الآيات الأربع، بالإضافة إلى آية سورة البلد السابقة: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠] وآية سورة الإنسان: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان:٣] تمثل قاعدة النظرية النفسية للإسلام، وهي مرتبطة ومكملة للآيات التي تشير إلى ازدواج طبيعة الإنسان، كما أنها مرتبطة ومكملة للآيات التي تقرر التعبة الفردية: كقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨] ومن خلال هذه الآيات وأمثالها تبرز لنا نظرة الإسلام إلى الإنسان بكل معالمها.

---

(٣٤٤) التفسير القيم، لابن القيم صـ ٥٧١.

إن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة، مزدوج الاستعداد، مزدوج الاتجاه ونعني بكلمة مزدوج على وجه التحديد أنه بطبيعة تكوينه، من طين الأرض ومن نفخة الله فيه من روحه مزود باستعدادات متساوية للخير والشر، والهدى والضلال، فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وبين ما هو شر، كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء، وأن هذه القدرة كامنة في كيانه، يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾، ويعبر عنها بالهداية تارة﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ فهي كامنة في صميمه في صورة استعداد، والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أو هناك، ولكنها لا تخلقها خلقا؛ لأنها مخلوقة فطرة، وكائنة طبعا، وكامنة إلهاما.

وهناك إلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان هي التي تناط بها التبعة، فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها، وتغليبه على استعداد الشر فقد أفلح، ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب، وهنالك إذن تبعة مترتبة على منح الإنسان هذه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه، توجيه الاستعدادات الفطرية القابلة للنمو في حقل الخير وفي حقل الشر سواء، فهي حرية تقابلها تبعة، وقدرة يقابلها تكليف، ومنحة يقابلها واجب ورحمة من الله بالإنسان لم يدعه لاستعداد فطرته الإلهامي، ولا للقوة الواعية

المالكة للتصرف، فأعانه بالرسالات التي تضع له الموازين الثابتة الدقيقة، وتكشف له عن موحيات الإيمان، ودلائل الهدى في نفسه وفي الآفاق من حوله، وتجلو عنه غواشي الهوى فيبصر الحق في صورته الصحيحة، وبذلك يتضح له الطريق وضوحا كاشفا لا غبش فيه ولا شبهة فتتصرف القوة الواعية حينئذ عن بصيرة وإدراك لحقيقة الاتجاه الذي تختاره وتسير فيه هذه في جملتها هي مشيئة الله بالإنسان، وكل ما يتم في دائرتها فهو محقق لمشيئة الله وقدره العام.

هذه النظرة المجملة إلى أقصى حد تنبثق منها جملة حقائق ذات قيمة في التوجيه التربوي فهي **أولا:** ترتفع بقيمة هذا الكائن الإنساني، حين تجعله أهلا لاحتمال تبعة اتجاهه، وتمنحه حرية الاختيار، في إطار المشيئة الإلهية التي شاءت له هذه الحرية فيما يختار، فالحرية والتبعة يضعان هذا الكائن في مكان كريم، ويقرران له في هذا الوجود منزلة عالية تليق بالخليقة التي نفخ الله فيها من روحه وسواها بيده، وفضلها على كثير من العالمين.

ثانيا: تلقي على هذا الكائن تبعة مصيره، وتجعل أمره بين يديه، فتثير في حسه كل مشاعر اليقظة والتحرج والتقوى، وهو يعلم أن قدر الله فيه يتحقق من خلال تصرفه هو بنفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١] وهي تبعة ثقيلة لا يغفل صاحبها ولا يغفو.

ثالثا: تشعر هذا الإنسان بالحاجة الدائمة للرجوع إلى الموازين الإلهية الثابتة؛ ليظل على يقين أن هواه لم يخدعه، ولم يضلله، كي لا يقوده الهوى إلى المهلكة، ولا يحق عليه قدر الله فيمن يجعل إلهه هواه، وبذلك يظل قريبا من الله، يهتدي بهديه، ويستضيء بالنور الذي أمده به في متاهات الطريق.

ومن ثم فلا نهاية لما يملك هذا الإنسان أن يصل إليه **من تزكية** النفس وتطهيرها، وهو يغتسل في نور الله الفائض، ويتطهر في هذا العباب الذي يتدفق حوله من ينابيع الوجود، بعد ذلك يعرض نموذجا من نماذج الخيبة التي ينتهي إليها من يُدَسِّي نفسه، فيحجبها عن الهدى ويدنسها، ممثلا هذا النموذج فيما أصاب ثمود من غضب ونكال وهلاك" [٣٤٥]

([٣٤٥]) في ظلال القرآن، لسيد قطب٨/ ٤٩، باختصار.

الثمرة الثانية: النجاة من النار

ومن الآيات القرآنية الدالة على ذلك قوله تعالى:﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾[الليل: ١٤ – ٢١] ، قال الإمام الطبري: قوله تعالى:﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ أي: فأنذرتكم أيها الناس نارا تتوهج، وهي نار جهنم، فاحذروا أن تعصوا ربكم في الدنيا، وتكفروا به، فتصلونها في الآخرة، قال مجاهد، في قول الله:﴿ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ قال: توهج، وقوله:﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴾ أي: لا يدخلها فيصلى بسعيرها إلا الأشقى، الذي كذب بآيات ربه، وأعرض عنها، ولم يصدق بها، وكان بعض أهل العربية يقول: لم يكن كذب برد ظاهر، ولكن قصر عما أمر به من الطاعة، فجعل تكذيبا، كما تقول: لقي فلان العدو، فكذب إذا نكل ورجع، وقوله:﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴾ يقول: الذي يعطي ماله في الدنيا في حقوق الله التي ألزمه إياها،﴿ يَتَزَكَّىٰ ﴾: يعني: يتطهر بإعطائه ذلك من ذنوبه. قوله تعالى:﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ كان بعض أهل العربية يوجه تأويل ذلك إلى: وما لأحد من خلق الله عند هذا الذي يؤتي ماله في سبيل الله يتزكى﴿ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴾ يعني: من يد يكافئه

عليها، فلا ينفق ما ينفق من ذلك، ويعطي ما يعطي، مجازاة إنسان يجازيه على يد له عنده، ولا مكافأة له على نعمة سلفت منه إليه، أنعمها عليه، ولكن يؤتيه في حقوق الله ابتغاء وجه الله، قال قتادة، في قوله ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴾: نزلت في أبي بكر [٣٤٦]، أعتق ناسا لم يلتمس منهم جزاء ولا شكورا، ستة أو سبعة، منهم بلال، وعامر بن فهيرة، ومعنى الكلام: وما يؤتي الذي يؤتي من ماله ملتمسا من أحد ثوابه، إلا ابتغاء وجه ربه، وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ يقول: ولسوف يرضى هذا المؤتي ماله في حقوق الله عز وجل، يتزكى بما يثيبه الله في الآخرة عوضا مما أتى في الدنيا في سبيله، إذا لقي ربه تبارك وتعالى" [٣٤٧].

قال ابن كثير[٣٤٨]: "ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك" [٣٤٩] . قال القاسمي: "ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها، فإن اللفظ لفظ العموم وهو قوله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى

([٣٤٦]) أسباب النزول ، للواحدي صـ ٣٤٠.، لباب النقول، للسيوطي صـ ٢١٢.

([٣٤٧]) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٧٧باختصار.

([٣٤٨]) تفسيرا ابن كثير٨/٤٢٢.

([٣٤٩]) ينظر في ذلك تفسير القرطبي٢٠/٩، وزاد المسير، لابن الجوزي٦/١٦٧والدر المنثور، للسيوطي١٠/٢٨٢، : تفسير ابن عطية٥/٤٩١، وأضواء البيان، للشنقيطي٨/٥٥٣.

﴿ يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴾ ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صِدِّيْقاً تقيا كريما جوادا بذالا لأمواله في طاعة مولاه ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود، وهو سيد ثقيف، يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يد لك عندي لم أجزك بها، لأجبتك. وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة. فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل. فكيف بمن عداهم؟ ، وفي الصحيحين [٣٥٠]عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"**من أنفق زوجين في سبيل الله نودي في الجنة يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان، قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله ما على أحد يدعى من تلك الأبواب من ضرورة فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم وأرجو أن تكون منهم**" "[٣٥١] .

([٣٥٠]) رواه البخاري، برقم(١٧٩٨)، ورواه مسلم، برقم(١٧٠٥).

([٣٥١]) محاسن التأويل، للقاسمي ٩/ ٤٨٧ باختصار يسير.

فالنجاة من النار من أعظم ثمرات تزكية النفس الإنسانية، فليحرص المسلم على الأسباب المؤدية إلى تزكية نفسه؛ لينجوا من نار جهنم وليكون من الفائزين بالجنة، وهذه الثمرة سنتناولها في الثمرة الثالثة فيما سيأتي.

الثمرة الثالثة: دخول الجنة

وهذه الثمرة من أعظم ثمرات تزكية الأنفس، كيف لا وهدف المسلم بعد رضوان الله تعالى أن يكون من أهل الجنة، وقد دلَّ على هذه الثمرة قوله تعالى:﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦ ﴾ [طه: ٧٤ – ٧٦]

قال الإمام الشوكاني في تفسير هذه الآية:" هذه الآية من جملة ما حكاه الله سبحانه من قول سحرة فرعون، حينما آمنوا بالله تعالى، حيث حكى الله تعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴾ المجرم هو المتلبس بالكفر والمعاصي، ومعنى ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴾ أي: أنه لا يموت فيستريح ولا يحيى حياة تنفعه، قال المبرد: لا يموت ميتة مريحة ولا يحيا حياة ممتعة، فهو يألم كما يألم الحي، ويبلغ به حال الموت في المكروه، إلا أنه لا يبطل فيها عن إحساس الألم، والعرب تقول: فلان لا حي ولا ميت، إذا كان غير منتفع بحياته،﴿ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي ومن يأت ربه مصدقا به قد عمل الصالحات، أي الطاعات، والموصوف محذوف، والتقدير: الأعمال الصالحات، والإشارة بـ ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إلى من

باعتبار معناه ﴿ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴾ أي المنازل الرفيعة التي قصرت دونها الصفات ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ العَدْنِ: الإقامة، وانتصاب ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ على الحال من ضمير الجماعة في لهم، أي ماكثين دائمين، والإشارة ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ إلى ما تقدم لهم من الأجر، ﴿ جَزَٰٓؤُاْ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ أي: جزاء من تطهر من الكفر والمعاصي الموجبة للنار" [٣٥٢].

قال المراغي في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴾ أي: إن من يلق الله وهو مجرم بكفره ومعاصيه فإن له جهنم لا يموت فيها فينتهى عذابه، ولا يحيا حياة طيبة ينتفع فيها بالنعيم المقيم، قال ونحو الآية قوله تعالى: ﴿ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فاطر: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٧٧] ، ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴾ أي: ومن لقى ربه مؤمنا به وبما جاء به رسوله من عنده من المعجزات التي من جملتها ما رأيناه وشاهدناه، ثم عمل صالح الأعمال، فهؤلاء لهم بسبب إيمانهم وجليل أعمالهم المنازل الرفيعة والدرجات العالية، وفى الصحيحين: "**إن أهل عليين**

([٣٥٢]) فتح القدير، للشوكاني ٥/ ١٤ باختصار.

ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب العابر فى أفق السماء؛ لتفاضل ما بينهم، قالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء، قال بلى، والذي نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين" [٣٥٣]، ثم فسر تلك الدرجات العلى بقوله:﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ﴾ أي: تلك الدرجات العلى هى جنات إقامة تجرى من تحت غرفها؛ الأنهار ماكثين فيها أبدا، ثم بين سبب فوزهم بهذا النعيم فقال:﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ أي: وذلك الفوز الذي أوتوه جزاء لهم على طهارة أنفسهم من دنس الكفر ومن تدسية أنفسهم بأوضار الذنوب والآثام، وعلى عبادتهم لله وحده لا شريك له واتباعهم للنبيين والمرسلين فيما جاءوا به من عند ربهم" [٣٥٤].

فما أعظمها من ثمرة يكرم الله تعالى بها عباده المؤمنين الذين عملوا على تزكية أنفسهم في دنياهم بأن يدخلهم الجنة، كما قال تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦ ﴾ [طه: ٧٤ – ٧٦].

فاللهم اجعلنا ممن زكت أنفسهم فاسحقوا بذلك رضوانك فأكرمتهم بدخول الجنة دار كرامتك، ومستقر رحمتك، اللهم آمين.

الفقير إلى عفو ربه ومولاه عبد الرقيب عبده خالد عبد الله. اليمن ـ إب.

٢٣ جمادي الآخر ١٤٤٣ الموافق ٢٠٢٢/١/٢٦

([٣٥٣]) صحيح البخاري برقم(٣٠١٦) وصحيح مسلم برقم(٥٠٥٩).

([٣٥٤]) تفسير المراغي ١٦/ ١٣٣.

الفـــــــهـــــــــرس

استهلال..... ٣
الإهداء..... ٤
المقدمة..... ٥
أهمية تزكية النفس..... ٨
المبحث الأول : حديث القرآن عن تزكية الأنفس ١١
المطلب الأول: التزكية في السياق القرآني..... ١٢
المطلب الثاني: معنى التزكية في اللغة والاصطلاح..... ١٥
المطلب الثالث: الله يزكي من يشاء ١٩
المطلب الرابع: الذين لا يزكيهم الله تعالى يوم القيامة..... ٢٣
المطلب الخامس: التزكية من وظائف الأنبياء..... ٢٨
المطلب السادس: التقديم والتأخير بين التزكية والتعليم في القرآن..... ٣٤
المطلب السابع: أنواع التزكية..... ٣٦
المطلب الثامن: تزكية الإنسان لنفسه..... ٤٢
المبحث الثاني: أسباب تزكية الأنفس في القرآن الكريم.....٥١
المطلب الأول: الأسباب التي ينبغي التحلي بها لتزكوا أنفسنا.....٥٣
السبب الأول: الايمان بالله.....٥٤
السبب الثاني: اقامة الصلاة..... ٦٣

السبب الثالث: ايناء الزكاة والصدقات ٧١
السبب الرابع: الاستئذان..... ٨٢
السبب الخامس: محاسبة النفس..... ٩٣
السبب السادس: مجاهدة النفس..... ٩٩
السبب السابع: مراقبة النفس..... ١٠٣
المطلب الثاني: أسباب ينبغي التخلي عنها لتزكوا الأنفس.....١٠٦
السبب الأول: غض البصر.....١٠٧
السبب الثاني: السبب الثاني: حفظ الفرج من الزنا..... ١٣٢
السبب الثالث: حفظ الفرج من اللواط..... ١٧٥
السبب الربع: حفظ الفرج من الاستمناء ١٩٥
السبب الخامس: ترك عضل النساء..... ٢٠٥
السبب السادس: ترك أكل الحرام..... ٢٢٤
المطلب المبحث: ثمار التزكية ٢٣٠
الثمرة الاولى: الفوز والفلاح ٣٣١
الثمرة الثانية: النجاة من النار..... ٢٣٧
الثمرة الثالثة: دخول الجنة..... ٢٤١